دماء في قصر الحمراء

قصة أهم وثيقة في تاريخ العرب في إسبانيا

تأليف

إيهاب فاروق حسني



مكتبة الدار العربية للكتاب

دماء في قصر الحمراء

«قصة أهم وثيقة في تاريخ العرب في إسبانيا»

حسني، إيهاب فاروق .
دماء في قصر الحمراء : قصة أهم وثيقة في تاريخ العرب في إسبانيا / إيهاب فاروق حسني
. ـ ط1. ـ القاهرة : مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2010 .
96 ص ؛21 سم .
تدمك : 0 ـ 637 ـ 293 ـ 977 ـ 978
1ـ القصص العربية
أ ـ العنوان 813
رقم الإيداع : 23732 / 2009

مكتبة الدار العربية للكتاب
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

محرم 1431هـ - يناير 2010م

دماء في قصر الحمراء

«قصة أهم وثيقة في تاريخ العرب في إسبانيا»

تأليف

إيهاب فاروق حسني

مكتبة الدار العربية للكتاب



(1)

قالَ ضابطُ الجَوازات :

لنْ أسمحَ للطائرة بالإقْلاع.. فعددُ الكروت المعبَّأة يزيدُ على عدد ركاب الطائرةِ... عليك أنْ تجدَ تلك الراكبةَ المتخلِّفة ... وإلا سأُلغي الكارتَ الزائدَ.

قَال موظَّف الشركةِ الناقلةِ محاولاً إقناعه بهدوءٍ:

الطائرةُ تأخَّرتْ عن مَوْعِدها.. والكابتن في حالةٍ من الغضبِ .. لا يريدُ أنْ يتأخرَ أكثر من ذلك.

أجَابه الضابط دون اكتراثٍ:

لا أستطيع مخالفةَ التعليماتِ.. اخترْ أحدَ الأمرين..

اضطر الموظَّفُ إلى الإذعانِ قائلاً بلهجة انكسار:

لا فائدةَ إذنْ!.. فقد بحثْنا عن تلك الراكبةِ في كلِّ صالاتِ المطارِ.. فَلْنُلْغِ سَفَرها...

راحَ الضابطُ يبحثُ عن كارتِ الجوازاتِ الخاصِّ بها:

حَسناً فعلتَ.. فلا أعلَمُ سرَّ تمسكك بهذه الراكبة.. إنها المرةُ الأولى التي أراك تَحْرصُ فيها على أحدِ ركابِ طائرتك بهذه الطريقةِ.

قال ذلك وانْفجَر في الضَّحك.. بينما الموظَّف يَغْلي انفعالاً:

إنها ابنةُ شقيقتِي..وقد أردْتُ مساعدتها.. لا أدري أيْنَ اختفتْ؟ كانت معي منذ نصفِ ساعةٍ.. ثم إن حقائبها فوق الطائرةِ.. ولنْ أستطيعَ إنزالَها مرةً أخرى كَيْلا أُؤخِّرَ الطائرةَ أكثر من ذلك... خاصةً أن الكابتن الإسباني شديد الغلظة... ولنْ يتردَّد عن الشكوى ضد مكتبنا بالقاهرة.

قَال ذلك وهو يتلفَّتُ حَوله بحثاً عنها... وما لَبِثَ الضابطُ يَخُطّ بقلمهِ لإلغاء الكارت... حتَّى لاحت فتاةٌ ذاتَ جمالٍ عربي أخَّاذ.. فرَاحَ الموظَّف يُشير إليها.

كانت الفتاةُ تقرأُ في كتابٍ بيدها... فلم تَرهُ.. أعَادَ التلويحَ لها بيدهِ.. قال للضابط:

لا تُلْغِ السَّفر! لقد وجدتُها.

وهَرول إليها... جَذَبها من يدها... جَريا معًا حتَّى مرورهما من بوابةِ الرَّحيلِ.. إلى الطائرةِ.

* * *



(2)

كانتِ السماءُ شديدةَ الصَّفاءِ في بدايةِ الرِّحلةِ - رغم طقْسِ الشِّتاءِ الباردِ - ولمْ تَرفعِ الفتاةُ عَينيها عن الكتابِ الذي تقرؤه.

مضى من الوقتِ غيرُ قليلٍ.

حينَ بدأ الطقسُ في الاختلاف.. تلبَّدتِ السَّماءُ بالغيومِ.. والسُّحبِ الكثيفةِ.. وبدأ الرَّعدُ يقصفُ من كلِّ جانب.

كانت الطائرةُ مُحلِّقةً فوقَ مياه البَحرِ الأبيضِ المتوسطِ... وقد اقتربَتْ من الأجواء الأوروبية... ومع اشتدادِ حَركةِ الرِّياحِ،أخَذَتِ الطائرةُ تتأرجحُ من حينٍ لآخر... تصعدُ إلى أعلى ثم تهبطُ فجأةً نتيجة مرورها ببعض «المطبَّات» الهوائيةِ.. وكُلَّما هبَطتْ.. تهبطُ معها قلوبُ المُسَافرينِ.. انْطَلقَ صَوتٌ فجأةً عَبر الإذاعةِ الدَّاخلية:

«أيُّها السادةُ والسيِّداتُ المسافرون معنا على مَتْن خطوطِنا الجوية.. نأسفُ لإخباركم بأنَّ أحدَ مُحركاتِ الطائرةِ قد تعرَّض إلى عُطلٍ نسبي... وإذَا لَمْ

نتمكَّن من إصلاحِه سنضطرُّ إلى الهبوطِ الاضطراري في أقربِ مطارٍ لإجراءِ الإصلاحاتِ الضروريةِ.

قَال الصَّوت ذلك.. وانتشَر الذُّعر بين رُكَّابِ الطائرةِ.. ومن بينهم رجلٌ إسبانيٌّ في حوالى الخامسةِ والأربعين، طويلٌ، وسيمٌ، ذو شعْرٍ أسودَ وعينيْنِ واسعتيْنِ، وجبهةٍ عريضةٍ نسبيًّا.. كان يجلسُ على مَقْربةٍ من الفتاةِ، ينظرُ إليها بصورةٍ لافتةٍ، كما لو كان يعرفها جيداً، وقد لفتَ انتباهه اهتمامُ الفتاة بالقراءةِ منذ بداية الرحلة.. وزادَ من دهشته ثباتها غير الاعتيادي أمام تلك الأزمة التي تتعرَّض الطائرةُ لَها.. أراد أنْ يتحدَّث إليها... لكنَّه لم يتمكَّن من ذلك.. ومع هذا لمْ يرفَعْ عينيه عنها طَوالَ سَاعات الرِّحلةِ.

لَم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى تم إصلاح العطل، وانطلقَ صوْتُ القائدِ عبر المذْياعِ الداخلي قائلاً:

أيها السادةُ والسيداتُ! تأْسفُ خطوطُنا الجويةُ على ذلك العطلِ المفاجيء، ونودُّ أنْ نلفتَ انتباهكُم إلى أننا نشرفُ على الهبوط الرسمي بمطار مدريد.. نتمنىَّ لكم رحلةً سعيدةً.

* * *



(3)

عندما هَبطت الطائرةُ بمطار «مدريد»، أخذتْ وفودُ الرُّكابِ في التدفُّقِ عبْرَ بواباتِ الخُروجِ.. ومن بينهم الفتاةُ التي بدتْ كقطرةِ ماءٍ وسْطَ سيلٍ جارفٍ.. يَتْبعُها الشَّابُ الإسبانيُّ في صمتٍ وسكونٍ... دونها أنْ تشعرَ هي به.. فما لبثت تخطو خارج الطائرةِ حتَّى انجرفَتْ بين الأجسادِ المتدفقة من مكانٍ إلى آخر، ثم إلى صالةٍ واسعةٍ لتجدَ نفسها خارجَ المطار فجأةً.. واقفةً كتمثالٍ في أحدِ شوارع مدريد... تتلفتُ حَوْلَها بدهشة، وفي حَيرةٍ وشَكٍّ... لاحَظَ الرجلُ توتُّرها وقلَقها.. فاقتربَ منها قائلاً بابتسامةٍ بريئةٍ:

هلْ أستطيعُ مساعدَتك؟

قالتْ بتردُّدٍ:

لا... شكراً لك..

حيَّاها.. وهَمَّ بالرحيلِ.. لولا أنْ أضافَتْ قائلةً:

لكنْ..

فالتفَت مُنصتًا إليها، وهي تُشير إلى جوازِ سفرِها قائلةً:

لَمْ أحصُلْ على خاتم الدخولِ..

أرسَل ضحكةً مقتضَبةً قائلاً لها:

الأمرُ هنا أسهلُ بكثيرٍ..

ثم استخرج بطاقةَ تعارفٍ من محفظتِه، أعطاها إليها بابتسامةٍ:

«ستيفان»! «حمزة ستيفان» من الموريسكيين(*)..

قالتْ برغبةٍ في التَّعارفِ:

«سارة مُراد»!.. باحثة دكتوراه مصرية في الآثار الإسلاميةِ.. جِئْتُ إلى هنا لدراسةِ العمارةِ الإسلاميةِ في غرناطة.

أبدَى لها إعجابَه..وشَردَ للحظاتِ تذكَّر فيها كيف كانت «سارة» واثقةً من نفسها في المؤتمر الصحفي الذي أُقيمَ في القاهرة، وهي تُعلنُ عن توصلها للخريطة التي تُرشد إلى مكان الوثيقة الحمراءِ، وقد شغلَه إعلانُها عن اتجاه نيتها إلى السفر للبحث عنها في قَصْرِ الحمراءِ..

تذكَّر ذلك وقال:

- هذا موضوعٌ رائعٌ!.. بإمكاني مساعدتكِ... إنْ لمْ يكُنْ لديكِ مانعٌ، فإني أنحدر من عائلةٍ تملك الكثيرَ من الأسرارِ المتوارثةِ..

ثم أضافَ:

كُنْتُ في زيارةٍ إلى القاهرة.. فأنا مهتمٌّ بالآثارِ.. وأعلَمُ الكثيرَ عنها، قال ذلك بلغة عربيةٍ محْكمةٍ، ثم أَطرقَ فجأةً..

---

(1) الموريسكيون يشكلون فئة عريضة من مسلمي الإسبان الأصليين ، وقد اضطهدوا ، وأقيمت لهم محاكم التفتيش للارتداد عن الدين الإسلامي .

قالَتِ الفتاةُ بدهشةٍ:

أنت تتكلَّمُ العربية بطلاقةٍ!..

نَظَر إليها بابتسامةٍ، ثم رَاحَ ينظرُ إلى سَاعة يَدِهِ قائلاً بلهفةٍ:

لقد تأخرْتُ على موعدِي! هل تَسْمحين لي بتوصيلكِ إلى أي مكانٍ تُريدينه..

قالتْ دونَ تفكيرٍ:

لا.. شكراً.. هناكَ منْ ينتظرني..

إلى أينَ أنت ذاهبةٌ؟

غِرْناطة!

قالتْ ذلك وهي تتلفَّتُ حولَها بحثاً عمَّن ينتظرُها..

لكنَّها بعيدةٌ(*) .. يمكنكِ أنْ تستقلِّي معي التاكسي الطائر إلى قُرْطبة، هناك تكونُ المسافةُ أقربَ بالنسبة إليك..

لا.. شكراً..سوْفَ أنتظرُ مندوبَ السفارةِ.. سيأخذُني إلى هناك..

قالتْ ذلك للتخلُّص من الإحراجِ.. فما زالتْ تحملُ عاداتها المصريةَ بين جَنْبيْها.. ورَغم حرصهِ على عَدمِ تركها إلَّا أنَّه قَرر الرحيلَ.. وداخلهُ يقينٌ بأنهما سيلتقيان مرةً أخرى.. فقال لها:

حسنًا آنسة «سَارة»! أرجو أنْ تتصلي بي إذا احتجْتِ إلى شيء .. لا تتردَّدِي لحظةً.. وتذكَّري دوماً أن باستطاعتي مساعدتك أكْثرَ مما تظُنين..

* تقع غرناطة على بعد 267 ميلاً جنوب مدينة مدريد (عاصمة إسبانيا حاليًا) ، وتطل على البحر المتوسط من الجنوب ونهر شنيل وبساتين قصور الحمراء وتِلالها العالية ، وهي تعلو قرابة 669 مترًا فوق سطح البحر .

ثم تركها ومضى إلى حيثُ تنتظره سيارةٌ فارهةٌ.. ما كادَ السائقُ يفتحُ له البابَ؛ حتى ركبَ شاخصاً إليها.. مُحيلاً عَينيهِ للنظر خلْفه عبر مرآةِ سيارته إلى سَيارة «ليموزين» واقفةً في الخلفِ.. ثم سُرعان ما انطلقَ به السائقُ.. قاطعاً الطريقَ الطويلَ بسرعةٍ فائقة.. مُبتعداً شيئاً فشيئاً حتى اختفت السيارةُ تماماً.. بينما «سارة» مازالتْ تبحثُ عن مندوب السّفارةِ المصريةِ؛ الذي لَمْ يصلْ إليها بعدُ، ولمَّا يئسَتْ من الالتقاءِ به، استدعَتْ سيارةَ «الليموزين» الـمُنْتَظرةَ بالقربِ منها.. لتقودَها إلى أحدِ فنادق غرناطة..

* * *



(4)

توقفَتِ السيارةُ «الليموزين» أمام أحدِ الفَنادق الزَّهيدةِ.. في ضَاحيةٍ من ضَواحي غرناطة الشَّعبية.. لَمْ تَستغربْ «سارة» المكانَ، فتصميمُه المعماري على طِرازٍ إسلاميّ.. يُشبه منطقةَ الأزهر إلى حَدّ بعيدٍ.. لذلك لَمْ تَشعرْ بالغربةِ.. إلَّا أنها حينَ اقتربتْ من الفندقِ.. حاملةً حقيبتها المتواضعةَ في يدٍ، وجهازَ الكمبيوتر المحمول في اليدِ الأخرى.. شَعرتْ بالكآبة تتسَلل إلى صَدرِها.. خَاطرٌ ما بَدأ يُسَاورها بأن هذا الفُندق كان معتقَلاً أو سجناً في فترةٍ من تاريخه العريقِ.. هذا ما اسْتَشْعرته من طِرازِهِ المعماري الـمُنغَلق.. وطيور الكَآبةِ الـمُحَلِّقة في سمائهِ..فمن إطلالتها الأولى على واجهةِ الفنـدقِ.. أصَـابهَا فيروسُ الرَّهبةِ الخَـانق.. فـأرادتْ أنْ تتَراجعَ.. لكنَّهـا لا تَعلمُ شَيئاً.. ولا تملكُ سوى القليل من المال... كما أنَّ السَّائقَ أخبرَها بأنَّ هذا هو أرخصُ الفنادق.. فلا سَبيل أمامها غير الجَلَد والتحمُّل.. وعليها أنْ تواجهَ ذلك.

دَخلتْ إلى بَهوِ الفُندقِ.. كان كُلّ شيء قَدِيماً.. لكنَّه غير مُتهالكٍ.. الأثاثُ.. الجُدرانُ.. الديكورات.. حتَّى العاملينَ به.

توجَّهتْ إلى موظَّفِ الاستقبالِ.. تبدو ملامحُه شَدِيدَة القَسوةِ... لقَد خَشيتْ من مُحادثتهِ أول الأمرِ.. لكنَّه ابتسَم بافتعالٍ، قائلاً لها:

هل أستطيع مساعدتك سيدتي!

بَدتْ أسنانه السَّوداءُ كبقعٍ من القَطرانِ الأسودِ... أحسَّتْ ببعضِ الاشمئزاز... لكنَّها تَماسكتْ، وهي تُحدِّثه قائلةً بلغةٍ إسبانية غير متمكنةٍ:

نَعمْ من فضلك! أريدُ غرفةً لليلةٍ واحدةٍ.

حَسناً... سَأُعطيكِ غرفةً مُنزويةً.. بعيدةً عن القلقِ.. والإزعاجِ... ثم تناولَ مفتاحَ الغرفةِ الصَّديء من لوحةِ مفاتيحِ خَلْفه.. أعطاه إليها... مُسْتدعياً أحدَ العاملين ليقودهَا إلى الغرفةِ..

أثناء صُعودِهما.. سألَها العاملُ:

تبْدِين من أصلٍ عربي!

نَظرَتْ إليه باستغرابٍ.. ولَمْ تُجبه عن سؤالهِ.. لكنَّه استمرَّ في الحَديثِ قائلاً:

أنتِ جديدةٌ هنا بالتأكيد!

لماذا؟

فقَالَ بشيء من الأسى:

لا يأتي إلينا سِوى الهاربين من رجال الشُّرطة.. هل أنتِ هاربةٌ من شيء ما؟

رمقتْه بنظرةٍ لائمةٍ.. كأنَّها تقولُ له: ألا تستطيعُ التمييزَ بين المجرمين والعلماءِ أيُّها الغبيُّ! لكنَّها أمسكتْ عن الكلام.. مُنصْتةً إلى دقَّات قلْبها المضطربةِ... حتَّى فَتَح لَها البَابَ.. واستْسلمتْ إلى وحْدتها داخل تلك الغُرفة الكئيبة.. ورغم كآبةِ المكانِ إلَّا أنها حاولتْ إقناعَ نفْسها بأنه مكانٌ شديدُ الهـدوء وقريبٌ من قصرِ الحمراءِ موضوع رسالتها، الذي جاءَتْ من أجْله، فضلاً عن أنَّ بقاءَها فيه لنْ يستمرَّ لأكثر من ليلتين..

وما لبثتْ أنْ ألقتْ بجَسدها على مقعدٍ مُريح.. حتَّى بَدَأ النَّومُ يُداعب جفونَها.. ومن شِدَّة الإجهادِ.. أسْلَمت نَفسَها لسُلطانه..

* * *



(5)

سَمعتْ طَرْقَاً عَنيفاً على البَابِ.. اسْتيقظتْ فَزعَةً.. وهي تردِّد:

ما هذا؟ أيْنَ أنا؟

تَذكَّرتْ أنَّها راقِدةٌ في غُرفةٍ كئيبةٍ بأحدِ الفنادقِ القَديمة في حَي البائسين بغرناطة.. صَاحتْ مُتثاقلةً:

مَنِ الطَّارقُ؟!

بوليس!..

ولَمْ يَنتظرِ الطَّارقُ حين فَتح البَاب، ودَخَلَ إلى قلبِ الغُرفةِ.. وانتشَر رِجال الشُّرطةِ يفتشون في كُلِّ ركنٍ بالغُرفةِ.. بينما «سَارة» تنظر إليهم في دهشةٍ .. حتّى انتهوا من التفتيشِ واقترب منها أحدُهم.. سألَهَا عن هويتَهَا.. فأعطته جواز السَّفر قائلةً له:

أنا مصريةٌ! وصلْتُ اليومَ من القاهرة.

قال لَهَا وهو يفحصُ جوازَ سفرِها:

وما الغرضُ من قدومكِ إلى بلادنا؟

الدِّراسة!.. كما هو مُدوَّن بالجواز..

هزَّ رأسَه إعجاباً ودهشةً.. ثم سألها:

وما الذي جَاء بك إلى هذا الفندقِ؟ ألم يُخبركِ أحدُ بأنَّه مَشبوهٌ؟..

نَظَرتْ إلى موظَّف الفندق الواقف بجوارِهما.. وهَمَسَتْ:

أخْبَروني ببعض الأمورِ، ولكني كنتُ مُتعبةً، فلم آخذِ الكلامَ على مَحْمل الجدّ، وقُلْتُ لنفسي إنها مجرد ليلة أو ليلتين.. ثم أرحلُ إلى مكانٍ آخر..

قالَ وهو يُعطيها الجوازَ:

حسناً آنستي!.. لكنّ شيئاً قد حدَث، وداهَمتِ الشرطةُ المكانَ، وهناك بعض الإجراءات التي نَرغَب في إتمامِها... أرجو أن تصْطحبينا إلى قِسمِ الشرطةِ..

رمقته بنَظرةٍ مُسْتَفسرةٍ..

قَالَ شارِحاً لَهَا:

إنَّها إجراءاتٌ لا أكثر!

فما كان منها سوى الاستسلام ، يملؤها اليقينُ بخلوٍّ يَدِهَا مما يُسيء إليهَا..

* * *



(6)

عندَما دَخَل عليه سَائقُ «الليموزين»، كَان «حَمزة» يَسبحُ في المَسبحِ الخاص بقَصرهِ الفَخمِ.. وكان يُحيطُ به الحُرَّاس من كُلِّ جَانبٍ.. وقفَ السَّائقُ أمَامهُ في حالةٍ من الصمتِ.. حتَّى التفتَ إليه..

ماذا فعلْتَ؟!

لقد أرشَدتُها إلى الفندقِ.. وتأكدتُ من رقمِ غُرفتها... ثم أتممتُ المهمةَ..

هَزَّ «حَمزة» رأسه مُبتَسِماً.. ثم أومأَ بعينيهِ إلى أحَد مُعاونيه.. فأخْرجَ بعض النقود من حَافظتِه.. أعطَاها للسَّائق.. أخذها السائق مردِّداً:

سَتجدني دائماً رهنَ أمرك سيدي!

ثم انطلقَ فَرحاً..

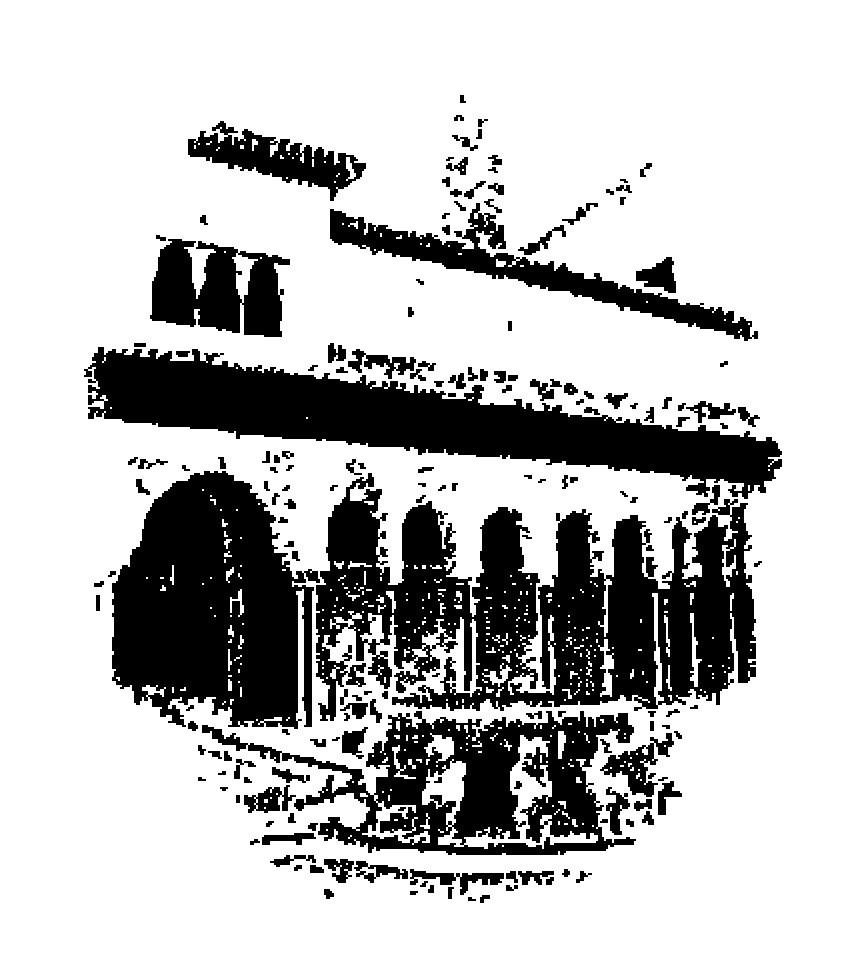
أشَارَ «حَمزة» إلى مُعاونِه.. فأخْرج تليفونه المحمول.. أجرى اتصالاً هَاتفياً..

ثم أعطَاه إليه.. تَحَدّث «حَمزة» قائلاً:

خدماتك إليَّ قد فاضتْ.. لَكَ مِنّي كُلّ التقدير.. أنا قادم إليك..

ولمْ تَمْضِ أكثرُ من نصف ساعةٍ، حتى كان في طريقهِ إلى قِسمِ الشُّرطِة.

* * *



(7)

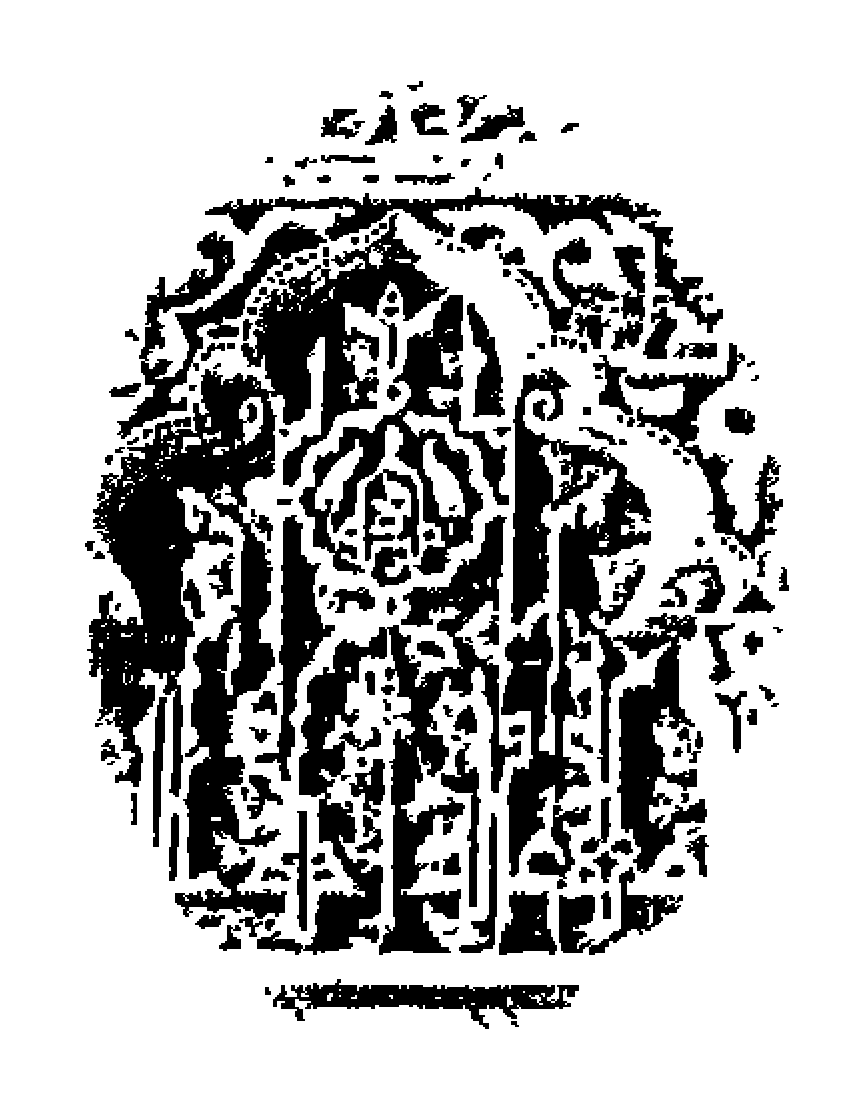
ما لبثتْ «سَارة» أنْ رأَته... حتَّى شعَرتْ بأنَّه طَوقُ النَّجاةِ بالنسبة إليها...
أقبلتْ عليه مردِّدةً:

حمداً لله أن رأيتكَ! لقد قبضُوا عليَّ ولمْ أفعلْ شيئاً...

وضَعَ «حَمزةُ» يَده على فَمها.. قَائلاً بابتسامةٍ رقيقةٍ:

أنا هنا من أجلكِ.. لقد علمتُ بطريقتي الخاصة بما حدثَ... لهذا جئتُ إليكِ.. لا تقْلَقي.. ثمَّ توجَّه إلى الشُّرطي في مكتبهِ الخاص.. صَافحَه بحرارةٍ.. أخرجَ مظروفاً مغلقاً من جيبِ معطفهِ.. أعطَاه إليه بابتسَامةِ شُكرٍ... ثم خَرَجَ إلى حيث توجدُ «سَارة».. سَألها عن وجهتهَا.. أخَذَها من يَدهَا.. وانطلقَ بها خَارجَ القِسْمِ القَديمِ...

* * *



(8)

في الطَّريقِ إلى جَامعةِ غرناطة... لاَحظَ السَّائق سَيَّارةً تتبعُهما باستمرارٍ..
قَالَ:

سَيِّدي! هناك سَيَّارة «هَمَر» تتبعُنا مُنذُ خُروجنا من قسم الشُّرطةِ..

لا تَلتفتْ إليها...

هكذا قال «ستيفان» ثم أخرَجَ مرآةً من حقيبتهِ... رَاحَ يُراقب خلالهَا حَرَكة السيَّارة الخلفيةِ.. هَمسَ لنَفسهِ بِغيظٍ:

مَرْحَى بالمشكلات!

سَألته «سَارة» بشيء من الرَّهبةِ والفَزعِ:

مَاذا في الأمرِ؟

نَظرَ إليهَا... دَفَع رأسَها بيدِهِ إلى أسفلٍ.. قائلاً:

انبطحي! لا أريدُ أن يَراكِ أحَدٌ معي..

فانبطحتْ «سَارة» إلى أسفل ، وهي تسألُ:

أريدُ أنْ أفهمَ ما يحدثُ!

فيما بعدُ! فيما بعدُ!

ثم قَالَ للسَّائقِ:

أسرعْ! حاوِلِ الاختفاءَ في أحدِ الشَّوارع المزدحمةِ بالقربِ من الجامعةِ...

انطلق السَّائق بسرعة فائقةٍ.. مُخترقاً الطَّريق عَبر إحدى الغَاباتِ... بينما السيارة الـ «همر» تقتربُ منهم بسرعةٍ أكثر... حتَّى لامستْ مُقدّمتها مؤخرةَ سيارة «ستيفان»... ورَاحتْ تَصْدمُها من الخلفِ لِتخرجها عن الطَّريقِ...

أخَذَتْ «سَارة» تَصرخ بصوتٍ عالٍ... بينما «ستيفان» يُحاولُ تهدئتها.. قائلاً للسَّائقِ:

افعلْ شَيئاً!

لا أستطيعُ مُقاومة سيَّارتهم... فهي أقوى بكثيرٍ..

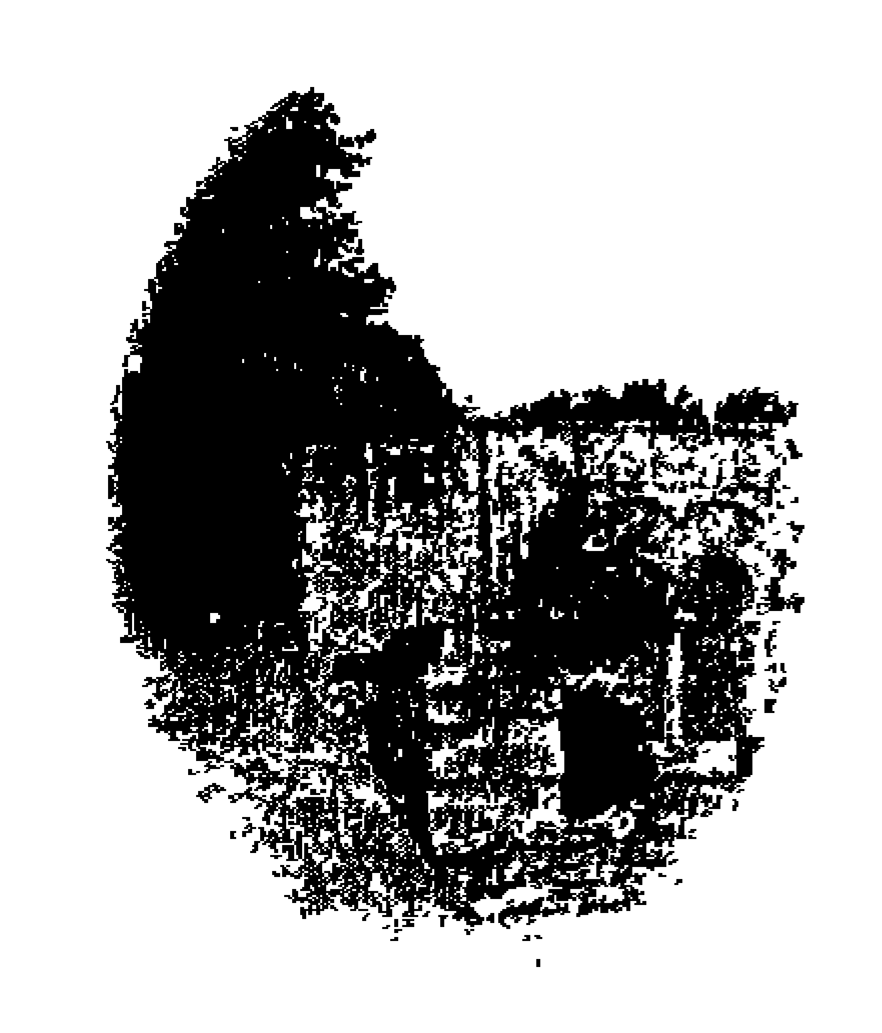
وما الحلُّ؟!

لا تقلقْ سيدي... سَترى ما يمكنني عَمَلُه..

في تلك اللحظة... بدَأتِ النيرانُ تنهال عَليْهِم من الخَلفِ... فانبطَحَ «ستيفان» داخل السيَّارةِ... بينما «سَارة» ترتجفُ من شِدَّةِ الخوفِ..

فُوجيءَ السَّائقُ بإصلاحات في نِهاية الطَّريقِ... ولاَحَظَ أحَدَ «المَدقَّاتِ» عن يمينهِ... خَطَرتْ له خَاطِرةٌ... فانحَدَر فجأةً بسيارتهِ يميناً جهة «المدقّ» لتُفاجَأ السَّيارة الـ «هَمَر» بحاجزٍ أسمنتي في مواجهتها... وتصطدم به... مُحدثةً انفجاراً رهيباً...

* * *



(9)

توقفتِ السَّيارة أمام مبنى جامعة غرناطة، لمْ تكنْ «سَارة» في حالةٍ نفسيةٍ جيدةٍ... لكنَّها لابدَّ أن تُسجِّل نفسَها بالجَامعةِ... وقبل أنْ تنزلَ من السيّارةِ... نَظَرتْ إلى «ستيفان» نظرةً عميقةً.. وسألته برغبةٍ في الفهمِ:

ما الَّذي يَجري؟ لماذا حَاول هؤلاء قتْلنا؟

سأشرحُ لك كلَّ شيء...

ثم أخرجَ من جيبِ معطفهِ ورقةً... أعْطاها إليها مضيفًا:

هذا عنوانُ الفندقِ الجديدِ، ورقم غرفتكِ فيه... سَتجدين حجزاً باسمكِ لحين حُصولكِ على مسكنٍ مناسبٍ...

أخَذت منه الورقةَ.. نَظرَتْ إليه هامسةً:

سأفكِّر في الأمرِ!

ثم فتحتْ بابَ السَّيارةِ.. وهَمَّتْ بالنزولِ.. لولا أن أمسَكَها من يَدِها.. قائلاً لها:

مهلاً... أريدكِ في أمرٍ مهم.. وفَتحَ حقيبتَه... أخرجَ منها مفتاحاً صغيراً... أعطاه إليها... قائلاً بلهجةٍ حزينةٍ:

احتفظي به معكِ.. لا تُخبري أحَداً عنه...

ثمَّ أطرقَ للحظاتٍ... وأضافَ بعدها بعينيْنِ لامعتينِ:

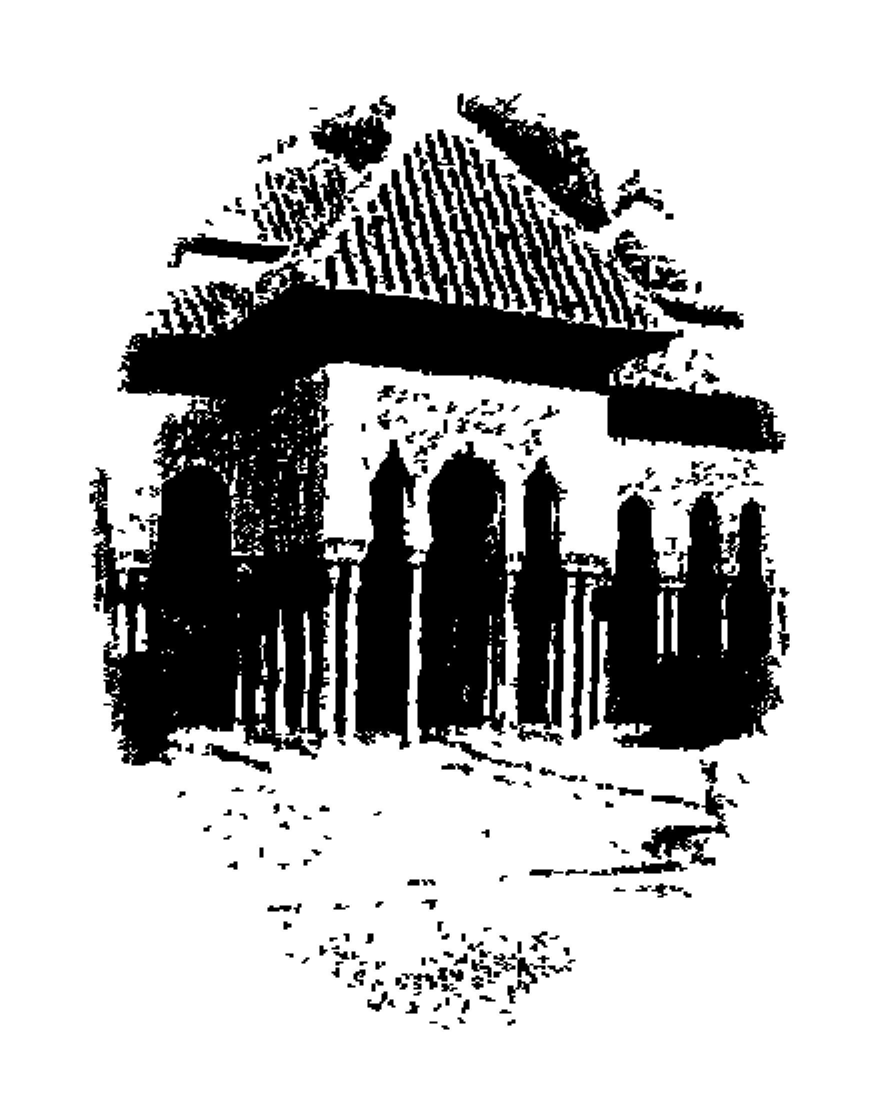
لو حَدَثَ لي مكروهٌ، ستجدين شيئاً يخصّك في خزينة باسمك بأمانات الفندقِ.. ستعْرفينَ كلَّ شيء عندئذٍ... وإذا مضَتِ الأمورُ كما خطَّطتُ لها سأطلعك على كلِّ شيء بنفسي.. اتفقنا؟..

لماذا اخترْتني أنا بالذات لهذا الأمر، نحن لا يعرفُ بعضُنا بعضاً تقريباً، فقد رأيتني فقط منذ ساعاتٍ؟!

لا أعلمُ يقيناً... لكنكِ الشخصُ الوحيدُ الذي يُمكنني الثقة به..

أَخَذَتْ منه المفتاح... نظرتْ إليه بدهشةٍ.. نزلتْ غير مستوعبةٍ لما يحدُثُ حَولَها..

* * *



(10)

في مَساءِ ذلك اليوم.. خَرجتْ «سَارة» من مبنى الجامعةِ... سَارتْ عبر شوارعِ غرناطة... تتأَملُ كلَّ شَيء حَولَها.. لا تلوي على شيء غير الذهابِ إلى حَي البائسين... حيثُ تُوجدُ حقيبتها بالفندقِ القَديم..

لَمْ تَشعرْ بالغربةِ أثناء سَيرها... في شوارع الحي التجاري... فكُلّ البنايات تُشبه بناياتِ القاهرةِ الفاطميةِ... باستثناء تلك التي شُيدتْ حَديثًا... تَحملُ ملامح ذلك العَصرِ نفسها... وما به من عناصرَ للإبهارِ الـمُعقدِ الـمُصطَنع...

هَكَـذا كانت تُحدِّثُ نفسها طوالَ الطريقِ، ومَا شعَرتْ إلَّا بالجوعِ ينهَشُ معدتها... تذكَّرتْ أنها لم تأكلْ شيئاً منذ أمسِ..

دخلتْ إلى محلٍّ «بيتزا»... كان معها «بيزيتات»(*) قليلة، اشترتْ قِطعتينِ... جَلَستْ على مقعدِ رُخاميٍّ بحديقةِ عامةٍ... رَاحت تلتهمُ «البيتزا» بنهمٍ شديدٍ...

(*) وحدة النقد الإسبانية ، التي أصبحت الآن «يورو» مع بدايات الألفية الثالثة .

اقتربَ منها متسولٌ... أصلعُ الرأس، جاحظُ العينين، سَمين، ذو كرش... رمقَها بملامحه المخيفةِ... كانت تَلوكُ الطَّعامَ ببطءٍ.. نَظَرتْ إليه... وجهُه يُخيفُهـا... لمْ تكُنْ ملامحُه غريبةً عنهـا... دقَّقتِ النَّظر إليه... لا تعرفه..

ربما أن ملامحه العربية تثيرُ الشكوكَ لديها...

بهذا حاولَتْ أنْ تُقنعَ نفسَها... لكنَّها لمْ تتغلبْ على مشاعرِ الخوفِ المتنامية في أعماقها كلما دققتِ النظرَ إلى ذلك الوجهِ المخيفِ..

وتذكّرتْ ذلك اليومَ البعيدَ.. منذُ بضْعةِ أعوامٍ... عندما رَنَّ جرَسَ التليفونِ.. وتَهادى إليها صوتُ أستاذِها مُبشراً:

لقد فَازَ بحثُكِ عن العمارة في الآثار الإسلامية بجائزةٍ دوليةٍ كبيرةٍ... وقد تم الإعدادُ لحفلِ تسليمكِ الجائزةَ، ومن المقرر أنْ تتحدَّثي عن مضمون البحث في مؤتمرٍ عام...

أيُعقلُ ذلك؟.. يا لَهُ من خَبرٍ رائعٍ..

ولِمَ لا؟! لقد توصلتُ في بحثي إلى نتائجَ مبهرةٍ ، خاصة بتوزيع الضوءِ داخلَ العمارةِ الإسلاميةِ..

والأهـمُّ أنني كشـفْتُ عن سرِّ الوثيقةِ الحمـراءِ باكتشافي للخارطة التي تؤدي إليها... أعتقدُ أنَّ ذلـك هـو مـا جعـلَ لبـحثي أهميةً من وجهة نظرٍ عالميةٍ.. قالتْ «سَارة» ذلك لنفسها، وهي تتمنَّى أن تكونَ مخطئةً في حكمها؛ حيث إنه لم يتم الاهتمامُ بها أو بأبحاثها من قبلُ، إلا بعد عثورها على هذه الخارطة مصادفةً مدفونةً في غرفةٍ ملحقةٍ بمسجد «السُّلطان حَسن».

كانتْ تلك المكالمةُ لحظةً فاصلةً في حياتِها العلمية...

منـذ تلـك اللحظـة والحلمُ يطاردها... يحملُ إليها الأملَ بقدر ما به من مخاوفَ مستقبليةٍ... ولا يزالُ ذلك الوجه - وجه الشحَّاذ- شاخصاً إليها بنظراتِه المريبة...

وها هي ذي جالسةً أمامه... تتأملُه بدهشةٍ في صمتٍ وسكونٍ بالغيْن..

سرتِ الرهبةُ في كيانها، وتملَّكتْها مشاعرُ الخوف... تردَّدتْ عبارة أستاذِها في رأسها: «ربَّما يستهدفونكِ لخدمةِ أغراضهم»..

أعطتْهُ قطعةً من «البيتزا»... أخذها... هامساً باللغة الإسبانية:

أنتِ.. أنتِ..

قال ذلك بلهجةٍ واثقةٍ.. ثم أخذ منها قطعة «البيتزا»، ومضى تاركاً إيَّاها في حالةٍ من الدهشةِ والشّرودِ..

فما كان منها سوى أنْ هَرْولتْ.. قبل أنْ يعودَ إليها من جديدٍ..

أخَذتْ تخترقُ الأجسادَ المحيطةَ بها؛ كأنها تُحاول أن تتخفَّى وراءها.. كانتِ المدينةُ غايةً في الجَمَالِ.. فلمْ تشعرْ بالتعبِ ولا بالمللِ أثناءَ سيْرِها.. حتَّى وجدتْ قدميْها تَأخذانِها إلى ذلك الحي الشعبي القدِيم.. الذي يعكس جُزءاً من بسَاطةِ تاريخ الأندلسِ وروعتِه..

لمحتْ متجراً صغيراً لبيعِ التحفِ القديمةِ، أرادتْ أن تُملِّي عينيهَا ببعضِ ما يحتويه المتجرُ... دَخلتْ.. قابلها رجُلٌ مسنٌّ.. تَبدو على ملامحِهِ المحفورةِ آثارُ الأندلسِ... وعُمقُ التاريخ الطويلِ..

هل أستطيعُ مُساعدتكِ آنستي!

نَظَرتْ إليه بِروحِ الألفةِ...

نعم أرجوكَ... أبحثُ عن بعضٍ...

كانتْ تقولُ ذلك بعينيْنِ زائغتيْنِ.. وقعتْ عيناها على مجموعةٍ من المفاتيحِ القديمةِ الصدئةِ... بعضُها كبير الحجمِ بصورةٍ غير مألوفةٍ... وبعضُها صغير الحجمِ... سألته:

هل هذه المفاتيحُ للبيع؟

كلُّ شيء هنا للبيع ما عدا المفاتيح...

لكنَّها تُعجبني!... لأيِّ شَيء هي؟

ضَحكَ العجوزُ.. وأجابها:

تبدينَ من أصلٍ عربيٍّ!

نعم... هذا صحيحٌ!.. فأنا مصريةٌ!

أنتِ من طيبة إذنْ؟ أرضُ الحضَارةِ ومهدُ التاريخِ.. هكذا يقولون عنها...

لقد عرفتُ سَبب تطلعكِ إلى هذه المفاتيح...

تبدو ذاتَ صلةٍ بأشياءٍ أثريةٍ..

لقد وَرثْتها عن جدودي.. لمْ يُخبرني أحدٌ عن مصدرها... لكنَّ قلبي يُحدِّثني بأنَّ لَها صلةً بمدينةِ الحمراءِ..

مَدينةُ الحمراءِ؟!

رَاحَ العجوزُ يسْعلُ بشدَّةٍ، ثم أسرَّ إليها:

قلْبي يُحدِّثني بأنَّ قصر الحمراءِ ينطوي على سرٍّ دفينٍ...

فأجَابته بلهفةٍ وبلا تفكيرٍ:

الوثيقةُ...

ماذا قلت؟ الوثيقةُ!..

تلعثمتْ قليلاً...:

نعم... سمعتُ عنها... إنَّها وثيقةُ للعالم الكبير «الزهراوي» [*]؛ وهي تحوي التركيبةَ الكيميائيةَ لعلاج نوعٍ معينٍ من أمراض السرطان، وهي في غاية الأهمية. وَرغم مُضيٍّ سنوات طويلة عليها، فلمْ يتوصل أحدٌ من العلماء المعاصرين إلى ما جاءت به من نتائج؛خاصةً وأنه تم تجريبها على كثيرٍ

(*)الزهراوي : هو عايش أبو القاسم خلف بن عباس المعروف بالزهراوي (724 هـ / 1035م) (نسبة إلى مدينة الزهراء الأندلسية) الملقب بجراح العرب ، يُعتبر أول من أسس علم الجراحة بعدما وضع له منهجاً علمياً صارماً لممارسته العلمية ، يعتمد بشكل أساسي على معرفة دقيقة بعلم التشريح ، وهو أول من شرح مرض نزف الدم المسمى «هيموفيليا» وشرح كيفية انتقاله وراثياً ، وله إضافات مهمة جداً في علم طب الأسنان وجراحة الفكين ، وأول من أدرك ضرورة ربط الشرايين ، وأول من أدخل القطن في الاستعمال الطبي ، وأول من استعمل الخيوط الجراحية ، وأول من استعمل الخياطة التجميلية تحت الجلد وأنواع الخياطة الأخرى ، وأول من ابتكر القسطرة البولية ، كما يعتبر رائد الطباعة ، فقد أبدع في هذه الصناعة الحضارية ، وله أبحاث وأنواع من العلاج لأمراض السرطان تدهش جراحي عصرنا الحاضر ، وقد اخترع عديدًا من الأدوات والآلات الطبية التي مازالت موجودة حتى الآن ، وكذلك رسم صوراً للحقن المعدنية التي استعملها لإدخال الأدوية إلى المثانة ، وأجهزة الاستنشاق ، وجبائر الأذرع ، وملاعق خاصة لخفض اللسان ، وفحص الفم ، كما ابتكر كلاليب خاصة ، كما ذكر طرق التخدير التي استعملها في عملياته الجراحية ، بواسطة الإسفنجة المخدرة . . . وقد وضعت صورته الملونة على الزجاج القديم في كاتدرائية ميلانو الشهيرة ، وأطلق اسمه على شارع في مدينة قرطبة تخليداً لاسمه .

العلماء المعاصرين إلى ما جاءت به من نتائج؛خاصةً وأنه تم تجريبها على كثيرٍ من الأشخاص في حياة «الزهراوي»، وأتتْ بنتائجَ باهرةٍ - رغمَ رخْصِ مكوناتها -... وكان العلماءُ يجدُّون في الحصول عليها منذ سنين طويلة، ولكنْ لم يهتدِ أحدٌ أبداً إلى مكانها...

رَمقها العجوزُ بنظراتٍ عميقةٍ... ثم قال بلهجةٍ واثقةٍ:

لــنْ أسـألـكِ كيـف علمْـت بأمـرهـا... لكـن إيـَّاك أن تذكـري أمر الوثيقة هُنا... وإلاَّ نالَك ما لا ترتضينه... فالأمرُ غير آمنٍ بالنسبةِ لكِ..

ثم ربَّت على كتفِها بحفاوةٍ، قائلاً لها:

تبدينَ لي ممن يجلبُون المتاعب لأنفسهم.. على أيَّة حَالٍ أستطيعُ مساعدتكِ كلَّما احتجْتِ إليَّ.. عندئذٍ.. دَخلَ إلى المتجر شَابٌ وسيمٌ، معتدلُ القامةِ، لونه مائلٌ إلى السُّمرةِ، أملسُ الشَّعر، ذو عينين زرقاويْن... نَظَرَ إلى الفتاةِ بخجلٍ... حيَّاها برأسِهِ.. ثم قبَّل يَدَ العَجوزِ.. هامساً:

جَدِّي العزيز!.. لقد تُقْتُ إليك كثيراً...

أرسَلَ العجوزُ ابتسَامةَ رضَاءٍ... والتفتَ إلى «سَارة» يُحدِّثها قائلاً:

هذا حفيدي «خالدٌ» .. يعمل محامياً..

«خالدٌ» ؟!

هكذا سألتْ «سارة» بدهشةٍ...

قال «خالدٌ»:

نعم.. نحن موريسكيون!..

هَزَّتْ رأسها بابتسامةٍ تدلّ على فهمها لحقيقةِ الأمر... وانصرفتْ وسطَ زخمٍ من الأفكار المتصارعةِ في رأسها...

* * *



(11)

في بَهْوِ الفندقِ الفَاخرِ؛ وقفتْ «سَارة» تتَأملُ في ذهولٍ... ورَهبةٍ.. فهي تَخشَى ارتيادَ الأماكنِ الفاخرةِ لأنَّها تَشعر داخِلها بالغربةِ..

تَقَدَّمتْ بخطواتٍ مترددةٍ.. كانت تُفكِّر فيما يمكنهَا أنْ تفعَل لو لَمْ يُسدِّد «حمزة» عنهـا ثَمن إقَامتهـا بالفنـدق... سَـوف تَغسِلُ الأطبـاقَ بالتأكيدِ.. لا بأسَ بذِلك.. فهو عملٌ ملائمٌ للنساءِ...

بهذا كانتَ تُحدِّث نَفسهَا.. حتَّى فوجئتْ بموظَّفِ الاستِقبال يسألُها بلغةٍ إنجليزيةٍ جيدةٍ:

هل أسْتطيعُ مساعدتكِ سيدتي؟

نَعَم.. أرجوكَ..

ثم أطْرَقتْ للحَظاتٍ... أضَافتْ بعدَها وحُمرةُ الخَجَلِ تُزيِّنُ وجنتيْها:

هل يوجدُ حَجزٌ باسم (مس مراد).. أو..

لَمْ يُمهلها الموظَّفُ حتَّى تُكملَ سُؤالها، فقاطعهَا قائلاً:

نَعَمْ سيدتي... نَحنُ ننتظرُ حُضورَكِ منذ صبَاحِ اليوم!

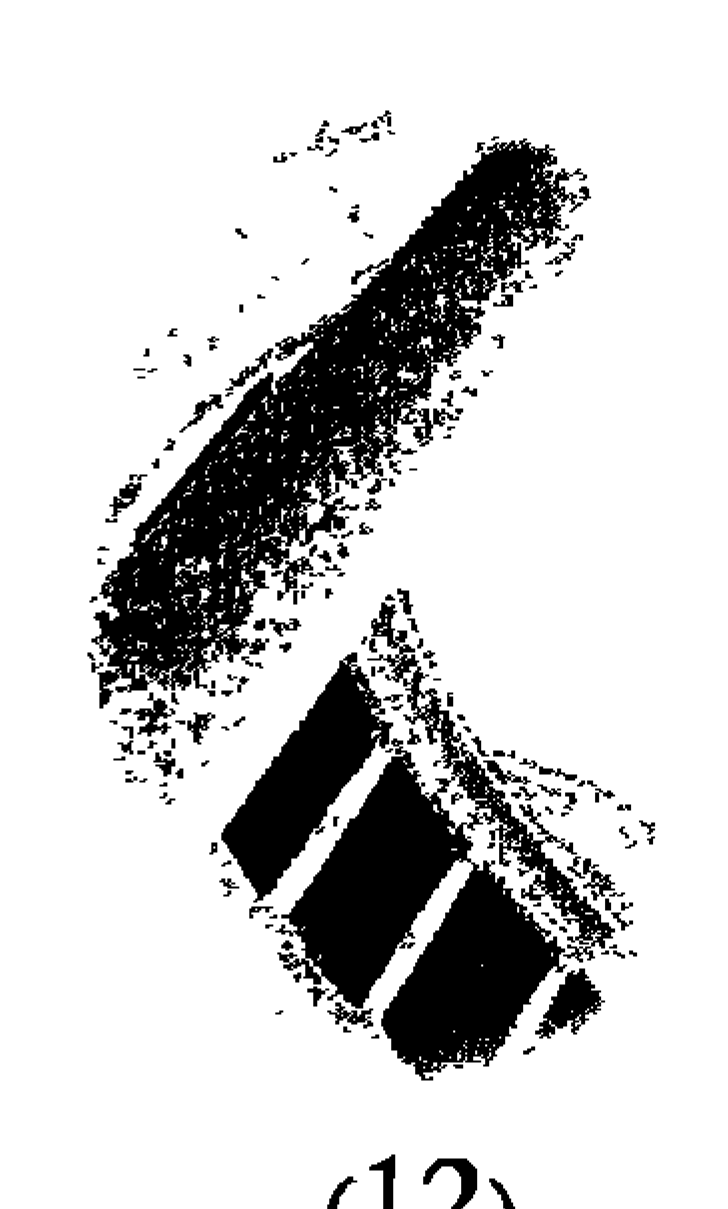
رَمَقتهُ باسْتغرابٍ.. ثم أخذتْ منه مفتاحَ الغُرفةِ.. وهَمَّتْ بالتوجهِ إلى مصعدِ الفندقِ.. لولا أنْ شَعرتْ بيدٍ تمسّ كتفها بلياقةٍ.. التفتتْ..

السَّيد «حَمزةُ»؟!

إنَّه أنا... بكلِّ تأكيدٍ..

قَالَ «حَمزةُ» ذلك بابتسَامةٍ رائقةٍ، ثمّ دَعاهَا لتناولِ العشَاءِ بصحبتهِ في مطعمٍ فاخرٍ بفُندقِ الباجيرا..

* * *



(12)

في تلك الليلةِ.. لَمْ تَشْعرْ «سَارة» بالخوفِ الَّذي سَكنَ قلبها في الفندقِ القَديم، فاستسلمتْ للنومِ.. تَركتْ نَفسَهَا تَغرقُ في فراشِها.. تَغرقُ حتَّى اللاوعي.. وحَلمتْ.. رَأتْ وجوهاً تُطلُّ عَليها من خلفِ مَدينةِ الحَمراءِ... تَسيلُ عليها الدِّماءُ بِغزارةٍ... كانتْ تَستغيثُ بِهَا.. هامسةً:

نَحنُ الموريسكيون!.. نَحنُ الموريسكيون!

بينما أجسَادهُمْ منزوعةَ الرؤوسِ في جَانبِ آخَر من المدينةِ... مكانٌ يُشْبِه القَلعةَ الحَصينةَ... أو كأنَّه سجنٌ مَنيعٌ... يُعَذِّب فيه السَّجانون من الإسبانِ هؤلاء المَسَاجين بكل ألوانِ التَّعذيبِ... ومن بين هؤلاء المُعَذَّبين.. بَرزَ لَها الشَّحاذ؛ ذلك الَّذي رأته في الحديقة...شُجَّ رأسُه إلى نِصفينِ...كان يَستصْرخُها... لا لتهبَّ إليه... وإنّما لتعجِّلَ بالهربِ... لكنَّها لم تَهربْ... ووقفتْ تُواجه الرّياحَ القويةَ المقبلةَ من مَدينةِ الحَمراءِ... مُخترقةً قَصرَ الحَمراءِ

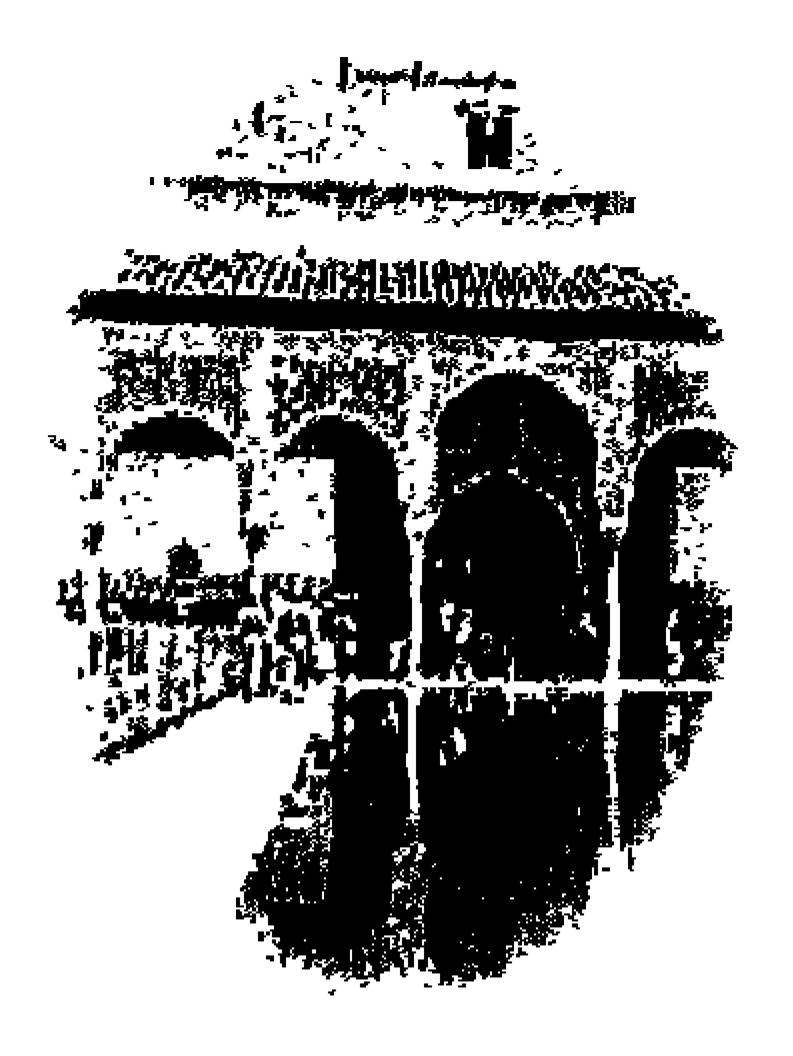
لتقتلعَها من فوقِ الأرضِ... وتَطيرُ بِها عالياً.. عاليًا... ثُمّ تُلقي بِها فَجأةً...
لتتَهاوى إلى قاعِ المدِينةِ...

نَهَضت «سَارة» فَزِعةً ... كانتْ تلهثُ كما لو أنّ شَخصاً يُلاحِقها... نَظَرتْ حَوْلها... أدركتْ أنها كانت تَحلُم... هَمستْ:

ياله من حلمٍ مُخيفٍ!

ثم تناولتْ جَرعةَ ماءٍ... وعاودتِ النَّومَ من جَديدٍ...

* * *



(13)

عندما استيقظتْ «سارة» في صباح اليوم التالي؛ كانتْ تشعرُ بآلامٍ مفرطةٍ في الرأس، حتّى أنها لمْ تحتملْ جرس التليفون الذي يلحّ عليها برنينه المتواصل، وأخيراً التقطت السماعةَ بصعوبةٍ... ليتهادى إليها صوتُه خجلاً:

أعتذرُ على الإزعاج! لكني حصلت بصعوبةٍ على تذكرتين لزيارة قصر الحمراء اليوم، وظننت أنكِ ربَّما تريدين الذهاب وتحتاجين مرشداً بصحبتكِ..

أهو أنتَ؟!.. نعم أريدُ الذهاب... لكني مُتْعبة اليومَ..

هكذا أجابته بترددٍ ومعاناةٍ.. فقال لها بخيبةِ أملٍ:

حسناً... ربَّما فرصة أخرى!...

لا... لا... انتظر..

ثم أمسكتْ رأسها من شدَّة الألم، وأضافتْ:

هل يمكنكَ أن تُمْهلني ساعتيْن، فأنا أريدُ الذهاب حقّاً، لكني أُعاني من آلام في الرأس، سأتناول قرصَ دواءٍ، وآتي معك...

أشكُركِ على منْحي هذه الفرصة، وأعدكِ بألا تَنْدمين...

قال ذلك بصوتٍ مبتهجٍ، ثم أضافَ:

سأنتظرُكِ ببهو الفندق بعد ساعتيْن..

حسناً..

أغلقتْ سماعةَ التليفون، ثم تناولتْ قرص دواء، واتّجهت إلى الحمام للاغتسال.

* * *



(14)

في الموعد المحدد، نزلتْ «سارة» إلى بهْو الفندق، أخذت تتلفتُ حولَها بحثاً عن «خالد»؛ الشاب الإسباني الذي لمْ تَره سوى مرةٍ واحدةٍ...

يا له من أمرٍ غريبٍ!

هكذا همستْ لنفسها، وما زالتْ عيناها تدوران في مَحْجريْهما بحثاً عنه، حتى رأته جالساً في ركنٍ بعيدٍ، تخيم فوقه ظلالٌ من الصمتِ...

توجهتْ إليه... قالت له بلهجةٍ ناعمةٍ، وصوتٍ متألمٍ من أثرِ آلام الرأس:

هل تأخرتُ عليك؟

نظر إليها بابتسامةٍ رقيقةٍ، وقال بهدوئه المعتاد:

حتى لو تأخرتِ ألف سنة لوجدتني في مكاني هذا...

كان لكلماتهِ عليها وقْعٌ خاصٌ، سحْرٌ جذبها إليه بشدةٍ، لكنها حاولت إخفاءَ شعورِها، فسألته:

كيف عثرْتَ عليَّ؟

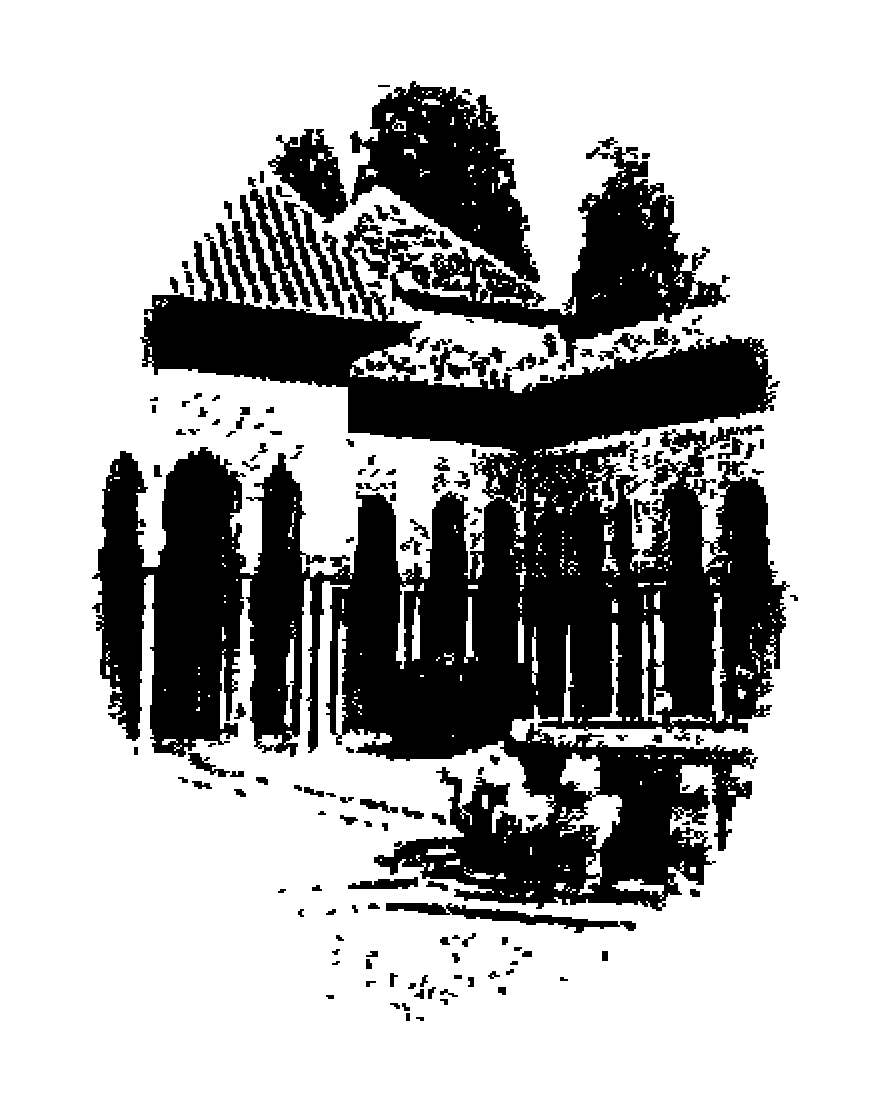
بسهولةٍ... سألتُ عنك في الفنادق الكبرى في غرناطة... فوجدتك بعد ثالثِ محاولةٍ، ولو لم أجدْك لحاولْتُ مراتٍ ومراتٍ حتى أعثر عليك، فمن يجد كنزاً لا يتركه هكذا يتسرب من بين يديه...

هل سنقضي يومنا نتحدث هنا؟

لا... لابدَّ أنْ نذهبَ..

هكذا أجابها وانتفضَ واقفاً... ثم توجَّها خارجَ الفندقِ..

* * *



(15)

كـانت سيـارتـه «الميـنـي» تقطعُ الطرقات الضيقة بمهارةٍ فائقةٍ، تمْرُقُ من بين السيارات المحيطة بها مخترقةً قلب المدينة؛ كأنها تستبقُ الريحَ، وكلما ازدادتْ مشاكساتها، ارتجفَ معها قلبُ «سارة»؛ فلمْ تعتدْ هذا النوعَ من المغامرات... قالتْ في فزعٍ:

أنت تقودُ بسرعةٍ! لا يبدو على ملامحك الهادئة أنك من النوعِ المتهور؟

أجابها «خالد» بضحكتهِ البسيطةِ:

القيادةُ البطيئةُ تُشْعرني بالاختناق، فأنا مثل الطير، أعشقُ الطيرانَ... ثم سكت للحظاتٍ ، وأضافَ بعدها:

في طفولتي.. اشترى لي أبي دراجةً، كنت وقتئذٍ في السابعةِ تقريباً، فلم تُعْجبني، رُحْتُ أبكي وأصيحُ: هذه الدراجة للصِّغار... فقال لي ضاحكاً: وماذا تريدُ أنتَ؟ قلت له: أريد طائرةً كالتي تطير في الفضاء. فأجابني:

طائرة!... قلت: نعم...

ثم التفتَ إلى « سارة» التي تُنْصت لحديثهِ باهتمام... وأضافَ:

ولمْ يهدأْ لي بالٌ حتى اشترى جدّي لي طائرةً تعمل بالكهرباء، كلما ركبتها شعرتُ بمشاعرَ غريبةٍ، نشوةٍ، فرحةٍ، انطلاقةٍ... كل ذلك..

قالتْ له «سارة»:

يبدو أنك من النَّوع العنيدِ!

نعم! هذا صحيح! عنيد جدّاً... ومع الأسف لم يفهمني أحدٌ أكثر من جدِّي، لقد عِشْتُ سنوات عمري معه...

يبدو أنك تُحبه جدّاً؟!

لأنه يعرفُني أكثرَ من نفسي... دائماً يقولُ لي: أنت مختلفٌ!.. ولكني لم أفهمْ سببَ ذلك الاختلاف حتى الآن..

ربما تفهمُه فيما بعدُ!

ربما!..

ثم قال لها كأنه تذكَّر شيئاً ما فجأةً:

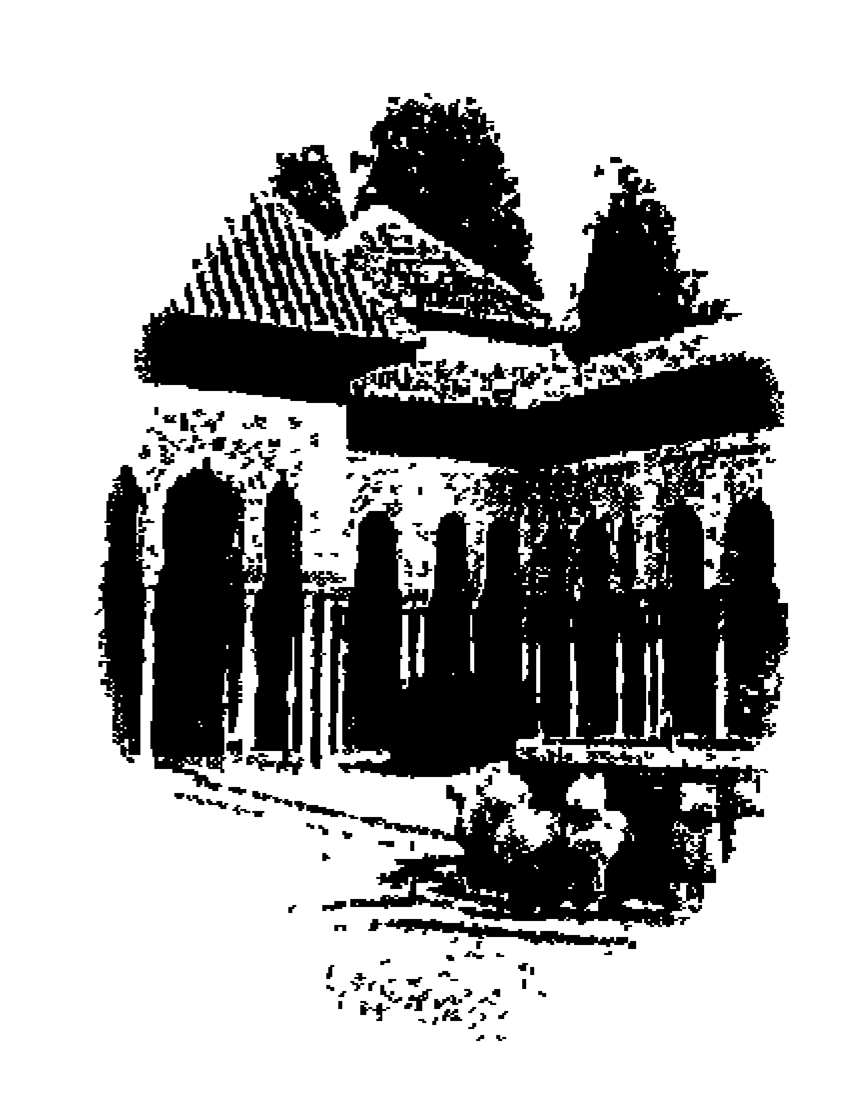
على فكرةٍ... جدِّي وجدتي يدعوانك لتناولِ الغداءِ معهما اليوم...

همَّتْ «سارة» بالرفض، لو لا أن قاطعَها قائلاً:

لا مجالَ للرفض! هما قالا لي ذلك... بعد الانتهاء من جولتنا بقصر الحمراء تُصبحين أسيرةً حتى انتهاء الغداءِ...

لم تجدْ «سارة» بُدّاً غير الصمتِ والاستسلامِ، لكنه استسلامٌ من نوعٍ خاص، شيء ما في أعماقها يدفعُها إليه دفعاً... بل يرغبه بقوةٍ... بينما السيارةُ تدورُ حول الطريق الطويل المؤدِّي إلى قصر الحمراء مخترقةً سفوحَ جبال سييرانيڤادا...

* * *



(16)

في تلك اللحظةِ وصل «حمزة» إلى الفندق، كان قلقاً على غير عادتهِ، ينضحُ جبينه بأماراتِ التوتر والقلق، اتجه إلى موظف الاستقبال مباشرةً، سأله بلهفةٍ عن «سارة»، بينما عيناه شاخصتان عبر مرآةٍ أمامه على شخصٍ أصلع وسمين يقف في الخلف، متخفياً خلف نظارةٍ سوداءَ... يتتبعه منذ فترةٍ... بدا له الرجل فظًّا... تنطقُ ملامحُه بقسوةٍ لاَ قلْبَ لها...

انتهز «حمزة» فرصةَ انشغالِ الموظَّفِ مع أحد النزلاء بالفندق، أخرج تليفونه المحمولَ، التقط صورةً سريعةً للرجل دونما أن يشعره بذلك... ثم انطلقَ خارجاً من الفندقِ، بينما الموظف يحدِّثه قائلاً:

عفواً سيدي! لقد انشغلْتُ عنك ...لقد خرجتِ الآنسة «سارة» منذ قليلٍ... إلاَّ أنه لمْ يُعره انتباهه، واستمرَّ في السير المتعجلِ حتى توسط مجموعةً من السائحين، ذاب بينهم. بينما عينا الرجل الغليظِ تدوران بحثاً عنه في كلِّ أرجاء الفندق، ولـمَّا أدرك فراره، انطلق كالسَّهمِ محاولاً اقتفاء أثره...



(17)

على مشارفِ قصر الحمراء، أوقف «خالدٌ» سيارته «الميني»، أحال نظراته إلى «سارة»، هَمسَ لها:

هذا قصرُ الحمراءِ! سرٌّ عربيٌّ!

كانت «سارة» شاخصةً إلى أسواره الشاحبة بشيء من اللامبالاة، وقد شغلتها تلك الجموع متعددة الجنسيات المتراصة على أبواب القصر... ولم تنتبه إلى كلماتِ «خالدٍ»، وهي تسأله:

هل سنصعدُ إلى أعلى؟

بكلٍّ تأكيدٍ...

نزلا من السيارة... ترجَّلا صعوداً على الدرجات المتآكلةِ «الهامبرا»... كانا يسيران ببطءٍ عبر الطريق المعبَّد المؤدِّي إلى القصر... إلى باب الرمان، عقدٌ حجري ضخمٌ محفورٌ عليه ثلاث رمانات، حيث يقود هذا الباب إلى

غابةٍ وارفةِ الظلال - رغم أنَّ الصعودَ فيها مجهدٌ من كثرة الدرج الذي يجب عليهما أن يواصلا السير صعوداً عليه - قبل أن يجتازا، مع الأفواج المنهمرة، باباً آخر هو بابُ الشريعة... تحتويهما أجواء الحمراء شيئاً فشيئاً، حتى تسحرهُما بعالمها الخاص، الراقد على حافة الحلم والواقع.. غابةٌ رهيبةٌ متكاثفة الأشجار تُداعب خيالهما، تغطي الهضبة كقبعةٍ تزين رأس إحدى الجميلات، وتمتد لتعانقَ بخضرتها النضرة العتيقة أسرارَ القصر من كل جانب.. تمتزج أصواتُ الزائرين بغناء السواقي البديعة، ذات المياه الفضية العذبة، تلك التي تظمأُ النفسُ لمجرد رؤيتها، وتهفو إلى الارتواء من نبْعها... إنه حلمُ اليقظة الذي غرق في عالمِ ملوك غرناطة، العالمُ الآسرُ الذي تحيط به الأسوار المنيعة - ورغم ذلك - فهو المكان نفسه الذي سالت دماؤه بوثيقة الاستسلام...

وما كادا يعْبران القلعة الرومانية الجديدة(*) مروراً بالمحراب الصغير، الذي تطْغى عليه نقوشُه المسيحية، ثم بالأقواس الخشبية؛ حتى وجدا نفسيْهما في فناء الرياحين، تلك الصالة الواسعة التي تتوسطها بركةٌ مستطيلةٌ، تحيطُ بها الجدرانُ ذات الزخارف الجميلة، وقد بدأتْ نظراتُ «سارة» غير المبالية تتحولُ إلى نظراتِ انبهارٍ؛ خاصةً عندما دخلا إلى فناء العرش..كان الجمالُ المحيطُ بالمكان يداعبُ عينيها، يجذبُهما عن رؤية كلِّ شيء إلاَّ من رؤيتهِ، يصمُّ أذنيها إلاّ من سماعِ صوت خرير المياه المنسابة في الجداولِ المنتشرةِ في حدائق مدينة الحمراء... همسَتْ «سارة»:

(*) قلعة رومانية حديثة ، بناها الإمبراطور الروماني كارلوس الخامس ، في المدخل إلى قصر الحمراء .

يالها من مدينةٍ رائعة!

نعم! مدينةٌ كاملةٌ.. ليست مجرد قصْرٍ كما يظنُّ البعض...

أمامَ القصرِ؛ استنشقتْ «سارة» عَبقَ التاريخِ، شعرتْ بتلك الرهبةِ تتسللُ خلسةً إلى صدرها، إنها رهبةُ الزمانِ في مكانٍ شاهدٍ على وقائعِ التاريخِ بكلِّ عظمته، وكأنها ترى بقلبها ما كان من أحداث الأمسِ القريبِ البعيدِ..

تشعُرُ بدوارٍ مفاجيء، يدورُ بها المكان دوراناً سريعاً، تُمسك رأسها... ينظر «خالد» إليها بدهشةٍ واستغرابٍ؛ لقد تسمَّرتْ قدماها في الأرض، وصارتْ جسداً يحيا في زمنه، وروحاً يجذبها الماضي بكل قوتهِ، يأخذُها إلى أحداثه الرهيبةِ؛ حين فقد أهلُ المدينةِ آدميتهم تحت أقدام الرعبِ في ظلام الألم اللانهائي..

استحضرتْ «سارة» الاحتفالَ المخيفَ.. رأتْ شَبح فرناندو الخامس(*)، وهو جالسٌ وسْطَ حاشيتهِ من زبانيةِ التعذيبِ في الساحة الواسعة، يشاهدون برغبةٍ جامحةٍ تنفيذَ حكم الحرق في عشراتٍ من الموريسكيين، سكان غرناطة..

كانت الأدخنة الكثيفة المتصاعدة من الأجسادِ المحترقة تُغطِّي سماء مدينة الحمراء بلعْنتِها، وامتزاج صراخِ المحترقين بنشوةِ الحقدِ الدفينِ لدى فرناندو وزبانيته، الذين ارتفعتْ ضحكاتهم تهزُّ أركانَ المكانِ..

كان سفرةُ التعذيبِ يملأون البطونَ بالماء حتى الاختناق، ويربطُون أيادي الأبرياءِ وراءَ ظهورهم... وحولَ راحتهم، يرفعُونهم ويخفضُونهم مع أثقالٍ تُربطُ بهم...وبالأسياخِ المحمية يمزقون أرجلهم.. ويَقطِّعونَ أوْصالَهم.

(*) ملك إسبانيا وقشتلة ، توفي في 32 يناير 1516 م .

تتذكَّر «سارة» ذلك.. تفقدُ توازنها، تُشْرِفُ على السقوط... لولا أن يصيحَ «خـالدٌ» بصـوتٍ مرتفعٍ:

حذارِ يا«سارة»!

يهرعُ نحوها، يجذبُها إليه بقوةٍ، فَينقذُها من سقطةٍ أكيدةٍ... مردِّداً بدهشةٍ بالغةٍ:

ما هذا؟! كِدْتِ تسقُطين...

ترفعُ «سارة» يده عنها، وتجهشُ في البكاء... وما تكادُ تنتهي حتى يقودَها برفقٍ إلى فناءِ الرياحين من جديدٍ، حيثُ تحتضنُ الأشجارُ والزهور بركة ماءٍ فريدةً...، يُجْلِسها على مقعدٍ رخامي قديمٍ، يجلسُ ساكناً إلى جوارها حتى تعودَ إلى حالتها الطبيعية...

يتهادى إليها صوتُ عصفورٍ مغردٍ، فتنصتُ إليه باهتمامٍ...

يهمسُ إليها «خالد»:

أراكِ في حالةٍ أفضل!

تُحيلُ نظراتها المجهدة إليه، ترسلُ ابتسامةً حزينةً.. تهمسُ:

أعتذرُ عمَّا حدث منذ قليلٍ!

لا بأسَ! المهم أنَّك بخيرٍ..

تنطلقُ مجموعةٌ من الطيور فجأةً، تتأملها «سارة» باهتمامٍ... تضيفُ قائلةً بصوتٍ هزيلٍ:

يحـدثُ لـي ذلـك كثيراً، يمكنـكَ أنْ تصـفَ حـالتي بالتـوحُّد مع المكان، فأنا منذ سنين أعمل مع المباني الأثرية، أدرس تاريخها، فأسمعُها تحدِّثني،

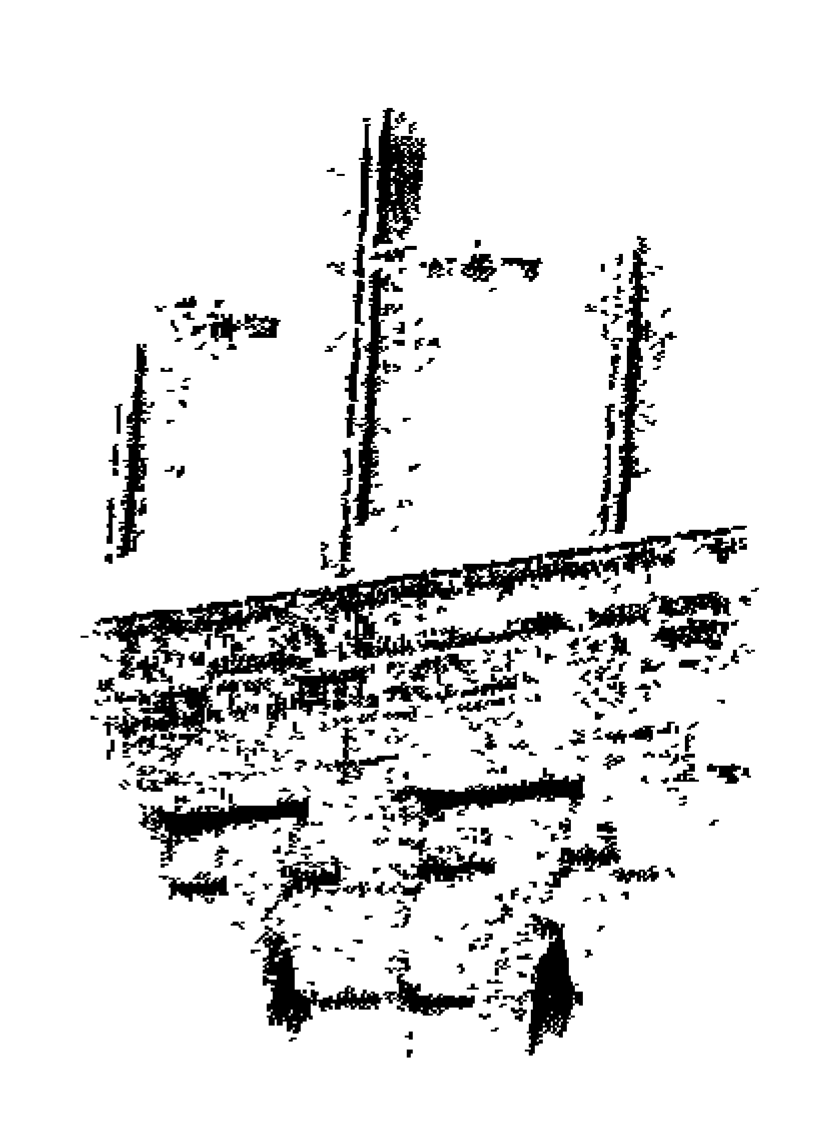
وتروي لي أشياءَ سعيدةً أو حزينةً... يمكنك أنْ تعـرفَ الآن أنني صديقةٌ قديمـةٌ لهذه الأحجـارِ...

ثم تسْكُتُ للحظاتٍ وتضيفُ قائلةً:

هل تصدقني إنْ قلتُ لك إني أعرفُ كلَّ شيء عن هذا القصر: أحجارَه، جدرانَه، منافذَه، سراديبه، قاعاته... إنه جزءٌ منِّي، يحملُ إليَّ الكثيرَ من الذكريات السعيدة، أو الأليمة كما رأيت... وتنهضُ قائلةً بابتسامةٍ رقيقةٍ:

أشعرُ بتحسنٍ الآن... هل يُمكننا استكمال رحلتنا الاستكشافية داخل قصْرِ الحمراء؟!.. وينطلقان بفرحةٍ إلى داخل القصر..

* * *



(18)

توقفتْ سيارته فوق هضبةٍ عاليةٍ، أبطَلَ السائقُ المحركَ، ظلا ساكنين داخل السيارة، كان «حمزة» الجالسُ على المقعد الخلفي ينظر حوله من حين لآخر، ثم ينظر إلى ساعة يده... همس السائق:

ألمحُ سيارةَ جيب مُقْبلةً نحوَنا!

يبدو أنهم قد أتوا...

يتأهبُ السائقُ للنزول من السيارة، بينما «حمزة» يلاحقه بكلماته:

كُنْ حذراً! لا تُعطهم الحقيبةَ قبل الحصول على القيمةِ المتفقِ عليها!

يهزُّ السائقُ رأسه بالإيجاب، ثم يتناولُ حقيبةً صغيرةً من المقعد المجاور له، ويشرع في النزولِ...

تتوقفُ السيارة «الجيب» في مواجهة سيارة «حمزة»، يتقدمُ السائقُ نحوها بخطواتٍ مدبرةٍ، يُفتحُ الباب الخلفي للسيارة، يهبطُ رجلٌ ضخمٌ قبيحُ المنظرِ، ملامحُه مخيفةٌ، يهابه السائق أول الأمر، لكنه يقترب منه بحذرٍ....

يبادره الرجل بالحديث:

هل أحضرْتَ الوثيقةَ؟

صوته الرخامي يصدرُ رنيناً غريباً:

نعم! إنها معي... هل أحضرتَ المال؟

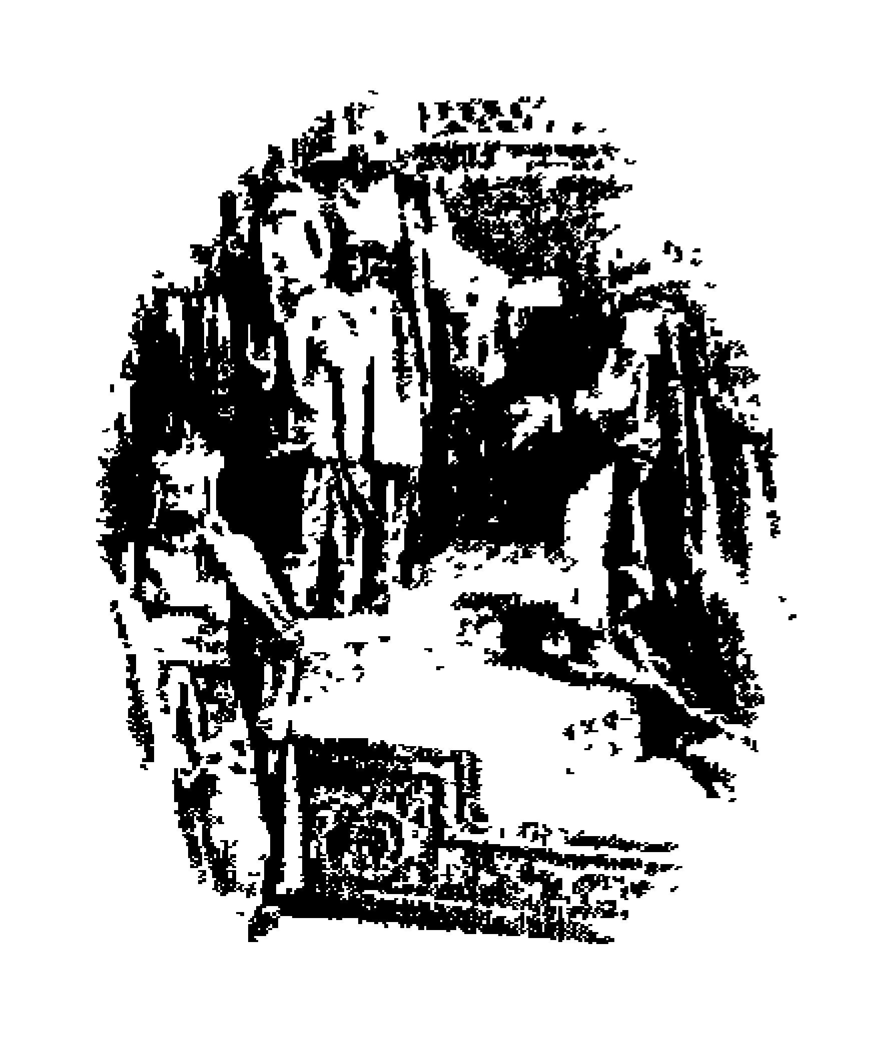
لا يجيبه الرجلُ، مكتفياً بإشارةٍ إلى أحد معاونيه الجالسين بالسيارة الجيب، يهرولُ مساعده إليه، يعطيه حقيبةً جلديةً، ويتأخر عنه خطوتين، شاهراً مسدسَه في وجه السائق.. يتبادلان الحقيبتين...

يُسرع السائق إلى السيارة، يركبُ خلفَ عجلة القيادة، يُعطي الحقيبةَ إلى «حمزة»... يفتحُ «حمزةُ» الحقيبةَ... يجدها ممتلئةً بالدولارات، يرسل ضحكةً مفاجئةً، ينظرُ إليه السائق بدهشةٍ عبر المرآة... يصيح «حمزةُ»:

ماذا تنتظر! هيَّا انطلق بأقصى سرعةٍ لديك... لا أُريدهم أن يتبعونا...

يديرُ السائقُ محرك السيارة... ينطلق مخلفاً وراءَه هالةً من الأتربةِ الكثيفةِ...

* * *



(19)

راح الخبيرُ يتفحَّصُ الوثيقةَ بعنايةٍ فائقةٍ، بينما الرجل الضخم ومساعدوه يحيطون به من كلِّ جانب، يغمرُهم الأملُ في الحصول على بغْيتهم...

تتغيرُ ملامحُ وجه الخبير فجأةً، يهزّ رأسه أسفاً، ينظر إلى الرجل الضَّخم من أسفل عدساتِ نظارته، يتمتم بلغةٍ لاتينيةٍ قديمةٍ:

لم تكُنْ على قدر الثقة التي أعطيتها لك!

يرمقه الرجل بنظرات يملؤها الشكُّ:

لنْ تقنعنى بما يدورُ في رأسك...

ثم ينتزعُ مسدسه من جرابِه، يصوِّبه نحوه قائلاً بصوتِهِ الرخاميِّ:

لمْ يستطعْ أحدٌ خداعي من قبل!

يشعرُ الخبير بأنه في مأزقٍ، يتقدمُ إليه خطوتين برفقٍ، يَربتُ على كتفهِ بهدوءٍ:

أخبرتك بحقيقة الأمر!...

ثم يلتقطُ الوثيقةَ من حقيبتها، يُعطيها إليه... قائلاً بخيبةِ أملٍ:

يمكنك اللجوء إلى أحد المختصين لفحصها مرة أخرى...

يتناولُ غليونه من جيب البالطو الأبيض الذي يرتديه، يُشْعل الغليون وهو يقولُ:

تمنَّيتُ أن تكونَ هي نفسها!

ثم يصمتُ قليلاً، ويضيف قائلاً:

لقد خدعك ذلك الشخص! عليك أن تجده بأيةِ طريقةٍ...

في تلك اللحظة يرنُّ جرس الهاتف المحمول، يتناولُ الرجلُ الضخمُ الهاتفَ المحمول من مساعده، يتهادى إليه صوتٌ قريبٌ إلى أذنيهِ:

سيدي! هذا أنا الذي أحدّثك... أريد مساعدتك... الوثيقةُ التي بحوزتك مقلَّدةٌ... أعرف مَنْ يقودك إلى مكان الوثيقة الحقيقية...

من أنت؟ وما المقابل؟

ستعلـــم كـل شيء عندما تَلْتقي بي...!

إنْ كنت تُحاولُ خداعي...

يقاطعُه قائلاً:

سأثبتُ لك أني أهلٌ لثقتك...

حسناً..

يُغلقُ الخطَّ، يقتربُ من الخبير، يصوِّبُ مسدسه إلى رأسهِ... الخبير يرتجف... يهمس الرجل الضخم:

لا تَخفْ! مازلت في حاجةٍ إليك... أنا المخطئُ، ويجب عليَّ إصلاح ما أفسدته...

ثم يخرجُ من المعمل، يتبعه معاونوه، تاركين الخبير يستجمعُ شتات نفسه..

* * *



(20)

في فناء السِّباع؛ وقفتْ «سارة» ذاهلةً، تتأملُ بعينيها ما رأته بقلبها مئاتَ المرات، تلك اللحظةُ التي طالما حَلُمتْ بها، وهذا هو الفناءُ الساحرُ؛ الذي يحيطُ به ممرٌّ، ومن حوله القاعات والغرف، وفي وسطه النافورة، تلك المعجزةُ التي صمَّمتها عقلية مهندسي غرناطة الجبارة، لاثني عشر أسداً، يرتفع كل منها قدميْن ونصفاً(*)، تتقدمُ «سارة» نحوها كالمسحورة، يتبعها خالد في صمتٍ ...

تدورُ «سارة» حول النافورة، تبحث بين السِّباع عن شيء ما، تتحسسُ أحجارها، تغمسُ يدها في مائها الراكد... يُخَيَّلُ إليها أن الماء قد أصبح دمًا... تُخْرِجُ يديها... تنظرُ إليهما بدهشةٍ... تتساقط قطرات المياه منها دمًا... يتسرب زمانها من بين يديها... يعود بها إلى الوراء... إلى ذلك الزمان البعيد .. رغم بقاء آثاره التي تدلُّ عليه..

(*) أنشأ هذا البهو السلطان محمد الغني بالله عام 557 هـ / 4531م ، لم يعرف أحد حتى الآن كيف توصل العلماء المسلمون إلى طريقة توزيع المياه التي تطلقها السباع من أفواهها بقوة قذف متساوية .

همس «الخليفةُ» بانكسار:

لا فائدةَ من المقاومةِ! منذ عام يحاصرُ فرديناند(*) وإيزابيلا قصرَنا المنيعَ بجيشهما... ولن نتمكن من الاستمرار تحت نيران مدافعهم، سيبيدون مدينتنا حتى النهاية... لقد قررتُ الاستسلام!

صاحت الملكة «الأم»:

وهل تجرؤُ على ذلك؟

لكنَّه لم يُنْصتْ لحديثها... وذاتَ يوم باردٍ امتطى «أبو عبدالله الصغير» صهوةَ فرسِه مُولياً ظهرَه لقصرِ الحمراء، وقدْ عَلَتْ وجهه سحابةٌ سوداءُ، وخيَّم على الرَّكبِ الصغيرِ صمتٌ طويلٌ، ينْبئُ عما يكتنفُ قلوبَ هذا الرَّكْبِ من غمٍّ شديدٍ..

سار وأمه وبعضٌ من أهله وصحبه في ذلك الطريق الملتوي الطويل، الذي يمرّ بين شِعابِ غرناطة وجبالها، متجهاً إلى منفاه ليفارقَ غرناطة إلى الأبد.

كانتِ الشمسُ قد أَوْشكتْ عَلى الغروبِ،وأخذتْ تعكسُ أشعتها الذهبيةَ على جدران قصر الحمراء، لتكسي حجارته بصبغةٍ حمراءَ باهتةٍ...

توقف «أبو عبدالله» قليلاً عند سفح جبل الريحانة، الذي يُشرف على وادي غرناطة المكتظِّ ببيوته البيضاءَ؛ ليُلْقي نظرةَ وداعٍ أخيرةً على مدينته الحزينة، تلك التي ترك حلمه بين أحجارها وأنفاسِ أهلها...

(*) كانت ممالك الإسبان الرئيسية هي قشتالة والأراكون وليون ، التي ضمت إلى «الأراكون» بزواج ملكة قشتالة إيزابيلا من ملك الأراكون فرديناند ، وبهذا توحدت ممالك الإسبان ، وبرزت إسبانيا كدولة فتية قوية ، وكان هدفاً مشتركاً بينهما أن يقضي فرديناند وإيزابيلا على غرناطة بصورة نهائية . . كانت إيزابيلا متعصبة إلى حد الهوس ، وكانت ترى أن رسالتها أن تطهر أرض إسبانيا من الكفرة في نظرها . . أما زوجها فرديناند فهو غادر لا يرى ضيرًا أن يكتب عهدًا بيمينه لتنقضها شماله .

تسارعَتْ في ذهنه ذكرياتُ صباه، أيامُه الجميلةُ التي قضاها بين صالات القصر وأروقته وحدائقه الغناء الواسعةِ...

تمنَّى لو تطولُ به الوقفةُ؛ لعلَّه يستطيعُ أن يملِّي عينيه بتلك المناظرِ الساحرةِ التي تثيرُ في نفسه أجملَ الذكريات، إلاّ أن الحزن الذي يَعْتصرُ قلبه سُرْعان ما طفَا على عينيه، حاولَ جاهداً أن يُخْفيه عن نظرات أمه الحادة التي عاجلته بطلقاتها:

ابكِ كالنساءِ مُلْكاً لمْ تَصُنْه كالرجال!

وكأنَّ الأم «عائشة الحرة» قد نسيت أنها كانت سبباً مهمًّا لسقوط غرناطة، فبسبب غيرتها وتسلُّطها على ولدها، ومكْرها الذي كانت تنسجُ شباكَه في القصر... سقطتْ غرناطة...

وهكذا غادرَ «أبو عبد الله» آخر سلاطين بني الأحمر عصارة قلبهِ... تاركاً وراءه فلذةَ الكبدِ من أهله وذويه لقبضة الإسبان، الذين لم تعرفِ الرحمةُ يوماً إلى قلوبهم سبيلاً، ولتبدأ مرحلةٌ جديدةٌ طويلةٌ، لا ينقَطعُ ليلُها أبدًا، مليئةٌ بالدموع متشكِّلة بلونِ ورائحةِ وطعْمِ الدِّماء، وليسدلَ الستارُ أخيراً على أنصارِ الصقرِ(*) فاتح الأندلس بعد بضعةِ قرونٍ...

وهكذا سقطتْ غرناطةُ.. وسقطت مدينةُ الحمراءِ..

ثابَتْ «سَارة» من شرودها، نظرتْ إلى أعلى، كانتِ الغيومُ كثيفةً، وبدأتِ السماءُ تبكي بغزارةٍ، أحالتْ عينيها إلى النافورة، كانت جثثُ القتلى طافيةً

(*) «طارق بن زياد» فاتح الأندلس .

على سطح الماء – رغم صغر قُطْرِ النافورة – لكنها تستطيعُ أن تراها، وقد أَلجمَ الغضبُ قلبَ «خالدٍ» ، الذي شرع في الاحتماءِ من الأمطارِ الغزيرةِ والبرقِ والرعْدِ بظلِّ شجرةٍ وارفةٍ، وبقيت «سارة» في الساحةِ الواسعةِ، ناثرةً شعرَها لبكاء السماء، تنصتُ إلى صراخِها وغضبِها بنظراتِ العطفِ والألمِ الدفين... وأخيراً لم يجدْ «خالد» بدّا سوى مشاركتها آلامَها... همستْ:

لابدّ من وجودِ سردابٍ للقصر، كيفَ لم أنتبه إلى ذلك من قبلُ؟

ماذا تقصدين؟

مهلاً!

تفكرُ بعمقٍ... تصيحُ فجأةً:

يالي من غبيةٍ!

تنتبهُ أخيراً إلى وجود «خالد»، تنظرُ إليه بعينيْن يملؤهما الأملُ، تقولُ بنبرةٍ ظافرةٍ:

رغم النتائج التى توصلْتُ إليها في بحثي، إلاَّ أني لم أنتبه إلى حقيقةِ السرداب غير الآن!

يرمقُها «خالدٌ» بنظراتٍ متشكِّكةٍ:

أيُّ سردابٍ تقصدين؟

لابدَّ من وجود سرداب في هذا القصر! أنا لا أعرفُ مكانه بالتحديد، لكنه ليس بعيدًا عن هنا... أنا واثقةٌ من ذلك... ثم إنني أملكُ الخريطـــــ......

ـة.... الخـــ...ـــر... يـ...

يضعُ «خالد» يده على فمِها، ينظرُ إليها بنظراتٍ حائرةٍ، يرسلُ تنهيدةً مرَّةً، يهمسُ:

هيا بنا نرحلُ، لا أريدكِ أن تتوغلي في مثل هذه الأمور! فلن تأتي بالخير على أيَّة حالٍ... ثم يجذبها من يدها برفقٍ، ويمْضيان خارجَ القصرِ..

* * *



(21)

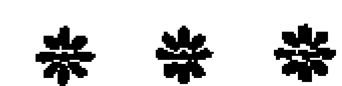
يخترقُ مسامعها رنينُ الهاتفِ المحمول، تفتح حقيبتها، تلتقطُ الجهازَ وتُجيبُ... يتهادى إليها صوته ناعماً دافئاً... تهمس:

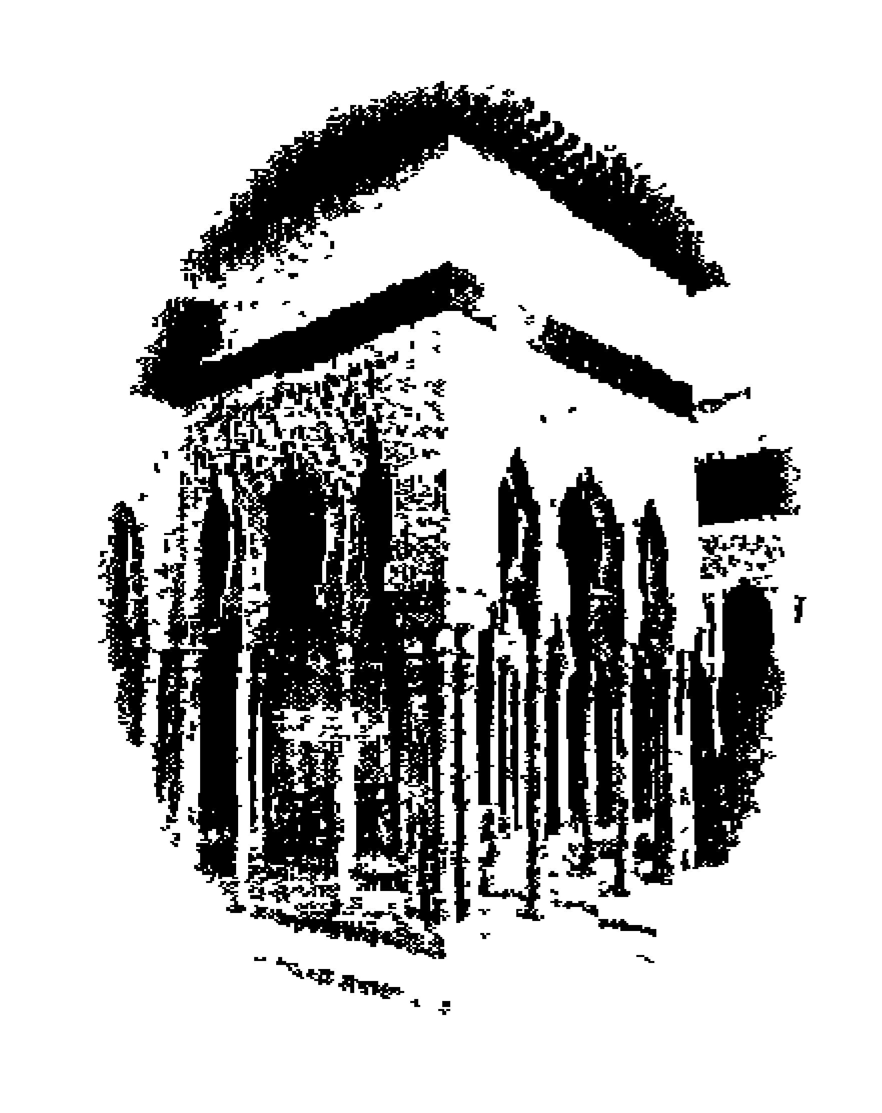
أهو أنت؟

نعم أنا... لم أركِ منذ يومين تقريباً، أشعرُ بافتقادك...

يستشعرُ «خالدُ» تحولاً في نَبْرة صوتها، وملامح وجهها... وأثناء هبوطهما عبر الطريق المتعرِّج في اتجاه الخروج، تلمحُ «سارة» سيارة «حَمْزة» واقفةً على مشارف أسوار القصر، فتهرولُ إليه بابتسامةٍ رقيقةٍ، وما يكاد «حمزة» يراها حتى يبادر بالنزولِ من سيارته لمصافحتها بحرارةٍ مفتعلةٍ.. بينما «خالد» يرقبُهما من داخل سيارته الصغيرة، يحيطُهما بنيران نظراتهِ الواعيةِ، وكأن طوفاناً من الشكوكِ المحيطةِ بشخص «حمزة» قد تملَّكه حتى نال منه...

وحين عادتْ «سارة» إليه، كانت علاماتُ استفهامٍ كثيرةٌ ترتسمُ على وجههِ، لكنه لم ينطقْ بكلمةٍ، وما لبثتْ أنْ جلستْ بجوارهِ، حتى انطلق بالسيارة كالسَّهم في طريقهِ إلى حيث يرقد بيت الجدّ العجوز في حي البائسين القديم، الشاهد الوحيد على بزوغِ نجمٍ لم يدُمْ في سمائهِ طويلاً، حتى امتدت إليه يدٌ خبيثةٌ أطفأتْ نورَه...





(22)

قال لها الجدّ،وهو يلوكُ طعامَهُ ببطءٍ شديدٍ:

البايلة(*) حارةٌ تماماً كالحرارةِ التي أراها منبعثةً من عينيٍّ «خالد»!

ينتبه «خالد» إلى كلماتِ الجدّ، يفهم مغزى كلامه، يرسلُ ابتسامةً مصطنعةً، بينما عيناه تفضَحان أساريره.

تهمسُ «سارة» محاولةً تغيير الموضوع:

أعتقد أنَّ دماء الشعب الإسباني كلها حارة، وليست دماء «خالد» بمفردهِ.

يرمقها الجدّ بنظراتٍ متفحِّصةٍ من أسفل عدسات نظارته، يُحيل نظراته إلى «خالد» الجالس عن يمينه بمائدة الطعام، يُشاكسه قائلاً له:

وأنتَ... هل تظن الشيء نفسه؟

(*) إحدى الأكلات الإسبانية الشهيرة ، عبارة عن خضراوات مشكلة ، ممزوجة بفواكه البحر والتوابل .

ثم يتناول قطعة من التورتيلا دو بطاطا (*) ويلوكها ببطءٍ...

يفكِّرُ «خالد» قليلاً... ثم يقولُ بهدوءٍ:

إنها مستمدةٌ من حرارة الشرق وروعته...

أخذ الجدّ يضحكُ، وهو ينظر إلى الجدّة الجالسة في نهاية المائدة نظرات ذات مغزى، ويقولُ:

هكذا هو فيلسوفٌ منذ طفولتهِ..

الطبيعةُ هنا لابدّ من أن تُوجِدَ فَلاسِفة... فهي تسرقُ العقولَ قبل المشاعر..

هكذا قالتْ «سارة» بحماسةٍ مفرطةٍ.. ثم نهضتْ فجأةً مرددةً:

ما أروع هذا الطعام! لم أذقْ أطعم منه في حياتي...

نهض الجدّ في أثرها، قائلاً بلهجةٍ لا تخلو من الدعابة:

وأنا كذلك!.. لم أذق طعاماً في حياتي!

أهذه سخرية؟

هكذا سألته الجدّة بنبرةٍ حادةٍ..

قال الجدّ يُداعبها:

وهل تسخرُ الشمسُ من القمرِ؟

تسللت كلماته إلى قلبِ الجدّة العجوز، سَرتْ في عروقها كالدماء، تورَّدت وجنتاها، حتى بدتْ طاووساً يُلْهيه الانشغال بذاته عن أي شيء آخر...

(**) كيكة البطاطس .

فتمتمت بلغةٍ لم تفهمها «سارة»... بينما فهمها الآخرون.. التفت الجدُّ على أثرِ سماعها... وهمسَ بكلمـاتٍ غريبةٍ.. نظرتْ «سارة» إلى «خالد» بنظراتٍ مستفسرةٍ... فقال لها بابتسامةٍ رقيقةٍ:

إنهما يتبادلان عبارات الحبِّ بلغةِ «الخميادو(*)»...

فابتسمتْ «سارة» بدورها... وخيَّم السكونُ للحظاتٍ...

توجَّه الجدّ إلى غرفةٍ قديمةٍ منزويةٍ، توقف فجأة، التفت إلى «سارة»، أشار لها برأسه لتتبعه.. نظرتْ «سارة» إلى «خالدٍ»؛ الذي كان واقفاً بجوار جهاز «الفونوغراف» القديم يحاولُ تشغيله، ذلك الجهازُ الذي يعتز به الجدّ، ويحافظُ عليه منذ سنوات طويلة.

بدأَ صوتُ الموسيقى «الإسباني» يصدحُ عالياً.. أدركت «سارة» أن «خالد» لن يتبعها... تبعتِ الجدّ إلى داخل الغرفةِ القديمةِ... بينما «خالدٌ» يلاحقها بنظراتهِ المستترةِ، وهو يحدِّث الجدّة التي جلست تنسج خيوطها قائلاً:

منذ سنواتٍ لم يدخلْ أَحَدٌ تلك الغرفة!

قالتِ الجدّة، وهي مستمرةٌ في النَّسْجِ:

يبدو أنه وجد أخيراً من تشاركه عالـمَه الخيالي.. دَعْهُ يستمتعْ بوقتهِ..

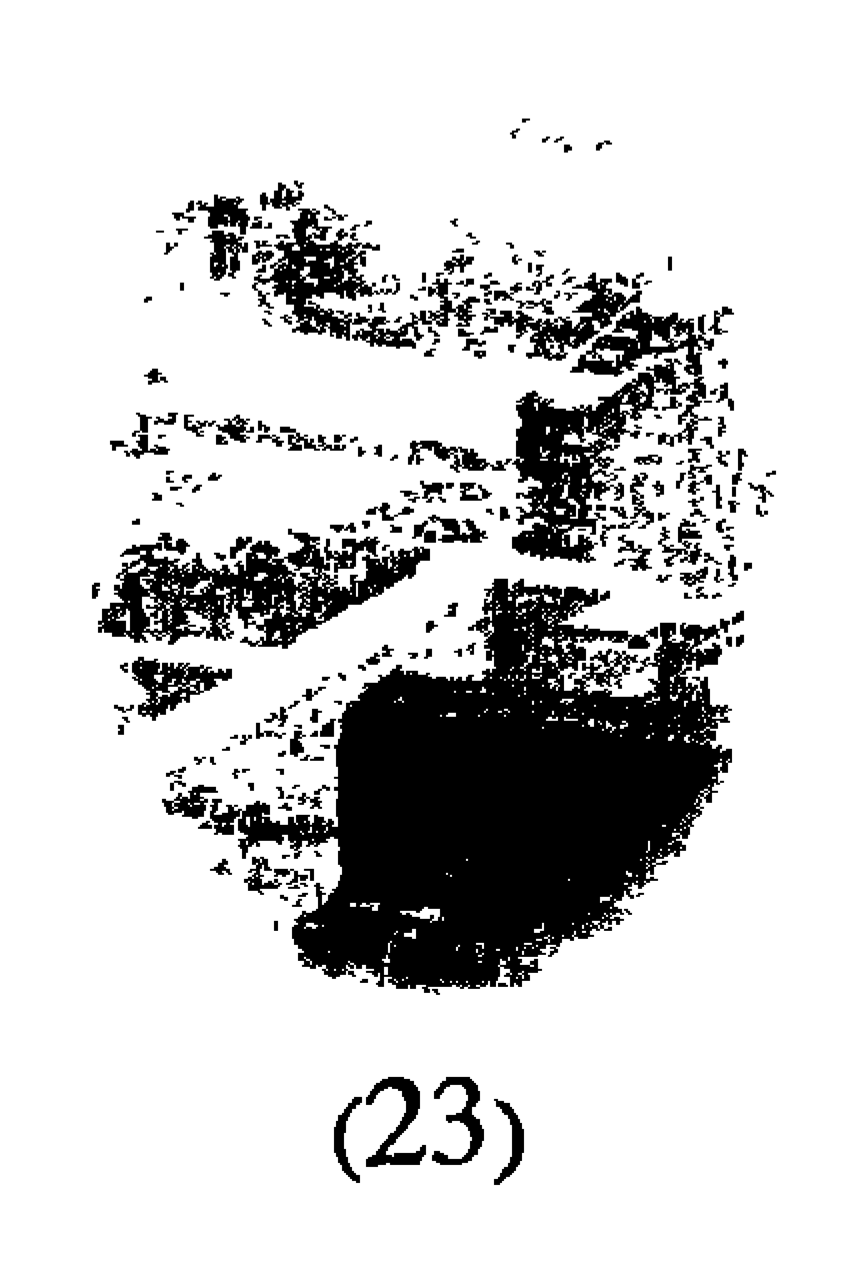
لم يقنعْ بكلماتِ الجدَّة، وإنما أيقنَ أن الجدّ قد وجد أخيراً مَنْ يفتح لها خزانته، المغلقة على أسرارهِ الثمينة...

(*) لغة قريبة من اللغة العربية ، استخدمها الموريسكيون ؛ لأن الدولة منعتهم من استخدام اللغة العربية بعد سقوط غرناطة سنة 1492م .

لكنَّه كان سعيداً بذلك؛ لأن وجود الفتاة سيساعد الجدّ على الخروج من حالة الاكتئاب التي أصابته مؤخراً...

وراح يُنْصتُ إلى أنغام أوبرا «كارمن»، يتمايلُ معها، وسُرْعان ما انجذب إليها، حتى اندمج في الرقص الإسباني بكلِّ روعته...

* * *



(23)

عندما خرجَتْ «سارة» بصحبةِ «خالدٍ»، كان الليلُ قد أقبلَ بغموضهِ:

لم أشعرْ بمضيِّ الوقت!

هكذا همستْ وهي تتأملُ الليلَ الساحرَ في حي البائسين:

وأنا كذلك...

ثم ركبا سيارة «خالد»، وانطلقا إلى الفندقِ الذي تُقيم به «سارة»...

طوالَ الطريق.. لم يكفّ «خالدٌ» عن التطلع في المرآة الأمامية للسيارة، لاحظتْ «سارة» ذلك... لكنها لم تُظْهر له شيئاً... حتى وصلا إلى الفندق الكائن في الحي التجاري العريق... نزلتْ «سارة» من السيارة قائلةً:

لنْ أتأخرَ! سأُحضرُ أغراضي وأرجعُ مباشرةً..

وما كادت تتقدم عدّة خطوات،حتى نظر «خالد» في المرآة.. شاهد رجلاً

أصلع، سميناً ينزل من السيارة الخلفية، يتتبع «سارة» بدأبٍ وحذرٍ شديدين، فارتاب في الأمر وشرع في مراقبتهِ..

وما كادت «سارة» تفتحُ باب الغرفة حتى زاغتْ عيناها، وشعرتْ بالرهبةِ تُباغتها فجأةً... لم تجدْ غرفتها كما كانت، وكأنَّ أشباحاً قد سكنتها، وأحالتها إلى مَرْتعٍ للهـوها وعبثهـا.. خرجت من الغرفة سريعـاً خـائفـة... تراجعـت عدّة خطوات... أغلقتِ الباب في محاولة للتخلص من خطرٍ مرتقبٍ.. فاصطدمتْ بجسمٍ بشريٍّ.. أيقنتْ أنه الموت يلاحقها... صرختْ.. وضع يده على فمها ليسكتها... قائلاً لها بلهفةٍ:

اهدئي! هذا أنا!

مَنْ؟ «خالد»...؟!

نعم... هناك من يتعقبكِ... هيَّا أسرعي بجمع أغراضكِ..

ليس قبل أن أعرفَ حقيقة الأمر من إدارة الفندق! الغرفة تعرَّضتْ للتفتيش، ولا أعرف... ربما فُقدتْ أشياء مهمة منها..

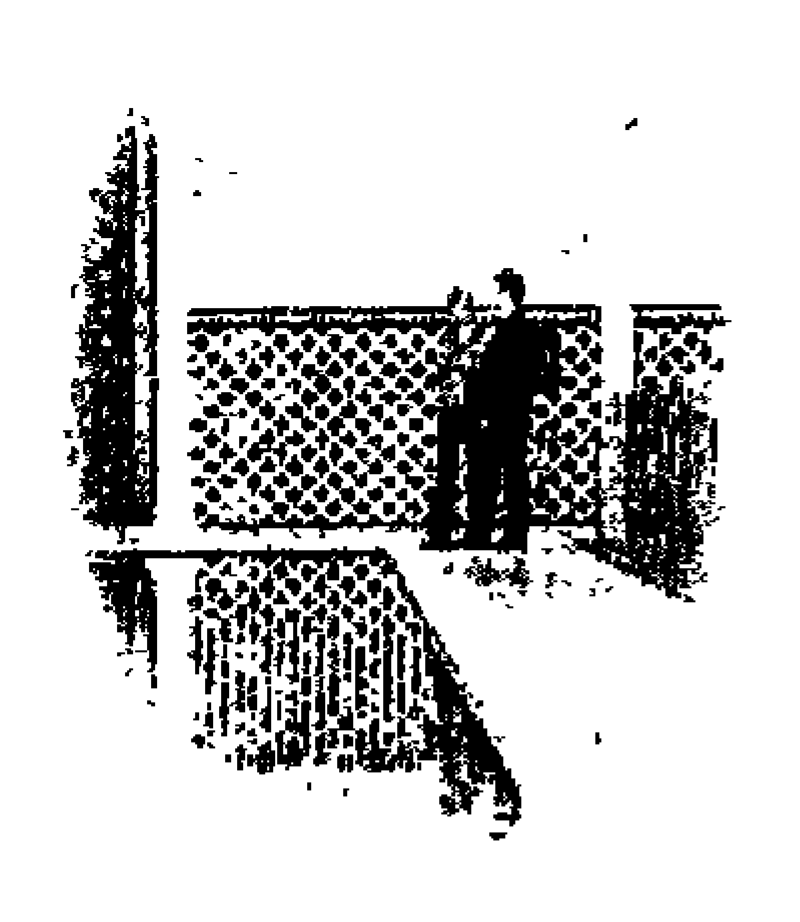
لا وقتَ لذلك... هيَّا...

ثم أخَذَ مفتاح الغرفة من يدها، فتحَ الباب بسرعةٍ، ودخَلَ، ليجدَها في حالة من الفوضى التي تُنبئُ عن خطرٍ قريبٍ، دعاها للدخول، فدخلتْ بخطواتٍ مترددةٍ، بينما راح يستعجلُها في جَمْع أغراضها، وهو يقوم بحمايتها... لمح ظلاً مقبلاً في الممر الخارجي، نزع المفتاح من المزلاج، بادر بغلق الباب من

الداخل، نظر إلى المفتاح في يده بقلق، نُقشتْ عليه علامةٌ تبدأ بحرف (A)، لم يُلقِ للأمر بالاً...

وبعد لحظاتٍ طويلة مضتْ كساعاتٍ...انتهتْ «سارة»من جَمْع أغراضِها... وانطلقا خارج الفندق هروباً من ذلك الشخص،الذي يقتفي أثرهما بدأبٍ وإصرارٍ...

* * *



(24)

داخلَ حلبةِ غرناطة لمصارعةِ الثيران، جلسَ سائقُ «حمزة» الخاص وسْطَ المُحْتشدين بالمدرجات..كان يمسكُ منظاراً بيديه، يتأملُ المصارعةَ أثناءَ دخول «البرابو»(*) ،خارجاً من غرفته المظلمة بكلِّ قوته عبر باب «تشاكيرو»،مُقْتفياً أثر الضوءِ المنْبعثِ من نهاية الممر الطويل إلى قلْبِ ساحةِ المصارعةِ... بينما المصارعون المبتدئون يَشْرعون في مشاغلتهِ وسْطَ صيحاتِ الجماهير... حتى دخول «الميتادور»(**) الذي يبدأ في محاورة «البرابو»، واستفزازه بقطعةِ القماش الحمراء لإثباتِ شجاعته أمامَ الجماهير...

أثناءَ ذلك، دخلَ الرجلُ الضَّخمُ، جلس بجوار السائق في هدوءٍ، لم يلتفتْ أحدٌ إليه، حتى السائق؛ كان مشدوداً لدرجة أنه لم ينتبه إليه...

(*) الثور الشجاع أو الباسل أو الأصيل ، يبلغ من العمر حوالي 4 سنوات ، ويزن 700/ 400 كجم .
(**) المصارع الرئيسي .

قالَ الرجلُ، وهو يضعُ نظارته الشمسية على عينيه:

هل أنتَ مَنْ أردتَ لقائي؟

قال السائق دونَ أنْ يلتفتَ إليه:

نعم...

ما الذي تُريده؟

أرغبُ في مساعدتك... هذا كلُّ ما في الأمر!

وما المقابلُ؟!

المبلغُ المتفقُ عليه!

هذا مبلغٌ كبيرٌ..

وأنتم ستحصلون على الوثيقةِ... ولا تنسىَ أنها تحتوي على معلومات تفيدكُم في الوصولِ إلى تركيبة الدواء المطلوب... وهذا سيدرّ عليكم أرباحاً طائلةً... غير استئثار شركتكم به في الأسواق..

كان قد مضى من وقتِ المصارعة حوالي خمس عشرةَ دقيقةٍ،حين دخلتِ «البيكادور»(*) إلى ساحة المصارعة، وكانتْ مصارعةً شابةً شقراءَ، ممتطيةً ظهر جوادها الأسود، وسرعانَ ما اندمجتْ في المصارعةِ، وقامتْ بغرس رمْحِها القصير في ظهر البرابو لتجعلَه ينزفُ... والجمهورُ يصيحُ مع كلِّ حركةٍ تُصدرها...

(*) الفارس .

لا نريدُ الدواءَ لبيعهِ!

أعلم ذلك..تريدونه لإخفائهِ! حتى يمكنكم بيع ما لديكم من أدويةٍ غير فعَّالةٍ وباهظة الثمن... أنتم مستفيدون في كلِّ الأحوالِ.

كنا نسيرُ بإنتاجنا كما نريدُ حتى جاءتْ تلك الباحثة المصرية بحثاً عن الوثيقة، فقلبتِ الأمورَ رأساً على عقبٍ... وطلبتْ منِّي الشركةُ الحصولَ على تركيبة الدواء بأيِّ ثمنٍ لإخفائه، خاصةً أنَّ الزَّهراوي قد مات منذ زمنٍ بعيدٍ، ودفنتْ سيرته معه، ولكن يالهذه الفتاة التي تحاولُ أن تعيدَ الحياةَ إلى الماضي.

حسناً!..

أخَذَ «الميتادور» يُزيدُ من محاورتهِ للبرابو، مما يُعرِّضه إلى خطرٍ أكبر...

هل أحضرتَ المالَ؟

ذلك هو!

يقول الرجلُ ذلك، وهو يُبرزُ حقيبةً كانت بيديه:

ينظرُ السائقُ إلى الحقيبة بلهفةٍ، ثم يُخرج ورقةً من جيبه، ويُعطيها إلى الرجلِ الضَّخْم قائلاً:

هذه الورقة تقودُك إلى مكانِ الوثيقة!

إذن هذه هي الخارطةُ التي كانت بحوزة الفتاة، والتي وجدتْها في مصر؟

نعم هي... وقد أخذناها من غرفتها في الفندق الذي تُقيم فيه.

يلتقطُ الرجلُ الورقةَ، ويُعطيه الحقيبةَ، فيهمُّ السائق بالانصرافِ، لولا أن الرجلَ يمسكه بقوةٍ ويُبقيه جالساً، ثم يفتحَ الورقةَ ويقرأ محتواها...

أثناء ذلك، يتكالبُ المصارعون حول البرابو، ويطعنونه بثلاثة أزواجٍ متعاقبةٍ من الأسهم في ظهره، فيصيحُ المتفرجون... بينما يتناولُ الرجلُ الحقيبةَ من بين يدي السائق برفق... وينصرف فى هدوءٍ... دون أن يُدرك أحدٌ أن السائقَ قد لفظَ أنفاسَهُ الأخيرةَ..

* * *



(25)

في الموعدِ المحدد، تجدُ «سارة» سيارة «حمزة» الفارهة واقفةً في الجهة المقابلة التي تطلُّ على حي البائسين... تقتربُ ببطءٍ من الباب الخلفي للسيارة، تنظرُ داخل السيارة، يفتحُ لها «حمزة» الباب الأمامي، تُفاجأ «سارة»... فلمْ تعتدْ أن يجلس «حمزة» خلف عجلة القيادة، يُحدِّثها بصوتٍ مرتبكٍ:

هيَّا اصعدي بسرعةٍ!

تركبُ «سارة» وهي في غاية الدهشة... ينطلقُ «حمزة» بالسيارة بسرعةٍ مفاجئةٍ.. تنظرُ إليه «سارة» بارتيابٍ... يقرأ نظراتها... يقول:

هناك من يُطاردنا! شخصٌ ما يريدُ قتلي!

تشعرُ بالخوف... تسأله:

ماذا فعلْتَ حتى يرغبوا في قتلك؟!

يُمسك «حمزة» يدَها بقوةٍ... ويهمسُ:

أريدُ الحديثَ معكِ في أمرٍ مهمّ.

ماذا تريدُ منِّي؟

سأخبركِ عندما نصلُ إلى قصر الحمراء...

هناك... يجلسان على مقعدٍ رخاميٍّ في ساحةِ السِّباع، تتأمل «سارة» وفود السائحين المنتشرة حولها، بينما يَحْدجُها «حمزةُ» بنظراتٍ غريبةٍ، تشبه سهاماً فتَّاكةً، تقرأ في عينيه ما لمْ تره من قبلُ، تشعرُ باضطرابٍ في أمعائها... تطولُ بهم الجلسة دون أن ينطقَ بكلمةٍ... تنظر في ساعة يدها... تقول:

لديَّ موعدٌ مهمُ!

يفهم «حمزة» ما ترمي إليه... يهمس:

سأتكلم إذنْ!... الأمرُ يتعلَّقُ بالخريطة..

أيُّ خريطةٍ؟!

الخريطةُ التي عَثُرتِ عليها في مصر...

وهل تعرفُ بأمر الخَريطة وتتبعني من أجلها..؟!

بالطبع لا... أقصدُ نعم... أقصدُ سمعتُ طبعاً عن الخريطة، فأنتِ أعلنْتِ ذلك في مؤتمر عالمي... وهذا ليس سرًّا... أما أنني أتتبعك من أجلها... فهذا لم يحدث... أنا فقط أريد مساعدتك؛ لأني أعلم أنك تكنين لي المشاعر نفسها التي أحسها تجاهك، وطبيعي أن يمدَّ الشخصُ يد المساعدة إلى مَنْ أحبَّ...

يتلفت «حمزة» يميناً ويساراً بحثاً باستمرار عن شَيْءٍ ما...

تسأله:

ما الذي تبحثُ عنه؟!

لا شَيءَ! لا شَيءَ!

تُحدّث نفسها قائلةً:

ما أغربه اليومَ! لم أره هكذا من قبل!

يقول بصوتٍ متوترٍ:

ها... ماذا قلتِ؟ هل وافقتِ على مساعدتي؟!

تقولُ «سارة»:

أنا؟! لا أفهمك اليومَ!

حسناً.. حسناً.. أمهليني دقيقةً، وستعرفين ما الذي أريده منكِ...

يُعاود الالتفاتَ حوله.. ينظرُ في كلِّ الوجوه المارة بهما..

تسأله «سارة» بدهشةٍ:

مَنْ أنتَ بالضبط؟!

سأخبركِ بكلّ شَيْءٍ... فالأمر أخطر بكثير مما تظنين..

وما يكادُ يبدأُ في الكشف عن سرِّهِ،حتى تنتابه نوبةٌ من السعال المفاجيء.. تهرول «سارة» لإحضار زجاجةِ مياهٍ... تعود إليه بعد لحظاتٍ.. تعطيه الماء.. لا يُجيبها، تهزُّه.. تشعر بشَيْءٍ لزجٍ... تنظر إلى يديها.. تجدهما ملوثتين بالدماء... بينما يسقط جثمانه على الأرضِ غارقاً في دمائهِ..

* * *



(26)

عندما وصل «خالدٌ» إلى قسم الشرطة؛ لم يصدّق ما تراه عيناه، كانت «سارة» جالسةً على مقعدٍ خشبيٍّ مكبَّلة اليديْن، بينما عيناها حمراويْن من شدِّة البكاء... لم يحتملْ رؤيتها في هذا الموقف، هرول إليها، سألها بدهشةٍ:

ما الذي حدث؟!

ذهبتُ لأُحضر الماء، وعُدْت لأجده مقتولاً! أنا لم أفعل شيئاً... صدِّقني، لم أقتله!

قالتْ ذلك بلهجةٍ منهارةٍ.. بينما «خالد» يحاول تهدئتها - رغم شرود ذهنه - إلاّ أنه تماسك، وحاول أن يستجمعَ أفكاره.. ثم قال لها:

سأحضر معكِ التحقيق، ليس عليكِ سوى الإنكار!

وبعد انتهاء التحقيق، كانت معظمُ الأدلةِ تدينُ «سارة»، فقرَّر المحقق التحفظ عليها على ذمة التحقيق...

ولـمّا خرجا من غرفة المحقق، مدَّت «سارة» يدها داخل جيبٍ سريٍّ،بين طيَّات ملابسها، أخرجتْ منه مفتاحاً صغيراً، أعطته إلى «خالد» هامسةً بصوتٍ شاحبٍ..

خُذ هذا! ربَّما يساعدك في الوصول إلى الحقيقةِ!

أخَذَ منها المفتاح.. سألها عنه، قالتْ:

إنـه مفتـــاح خـزانة بـاسمـي في الفنـدق، الذي كنت أُقيـم به... اذهـــب لتـــرى ما بها...

دسَّه في جيبهِ، وظلَّ ينظُر في عينيها الحزينتين، كما لو أنه لم يرهما من قبل، كانت نظراتها إليه تستصرخُه، تستغيثُ به، وعجزه عن إخراجها من قَيْدها يفْتكُ به... لَمْ يتألمْ في حياتهِ مثلما تألم في تلك اللحظةِ..

لنْ أتخلَّى عنكِ!

قال ذلك بينما الشرطي يجذبُها بقوةٍ، ليقودَها إلى حيث تقرر مصيرٌ مجهولٌ.. وهو بذلك ينتزعُها من قلبِ «خالدٍ» نزعاً... كأنما ينتزعُ منه رحيق الأمل الذي يستنشقه كلَّما رآها أو سمع صوتها.. ليتركَه فريسةَ أفكاره المتخبطة... أسيراً لعجزه الرهيب..

* * *



(27)

سَار «خالد» بمحاذاة شاطيء البحر، غارقاً في تفكيرٍ عميقٍ – كعادته – كُلَّما ضاقت به الدنيا، وغلبته الأحداث على أمره، كان يُحَاولُ ربط الأحداث ببعضها..

تذكَّر مقولة الجدّ:

إن أشواك الخطر تحيطُ بـ«سارة» في هذا الوقت بالذات!

وقد أكد له تلك الحقيقة ما رآه بعينيهِ في غرفتها بالفندق... يبدو أن الأمر كان أخطر بكثيرٍ مما بَدا له...

أخرج المفتاح من جيبهِ، راح يتأمله بدقةٍ، فهو يحمل نقشاً بحرف (A)... ثم جلسَ على صخرةٍ مُطلةٍ على البحرِ، ظلَّ ينبش بالمفتاح في الصخرةِ.. خطَرتْ له خاطرةٌ.. نهضَ في التوِّ، واتجه إلى الفندقِ...

قال له موظَّف الاستقبال، وهو ينظر إلى المفتاحِ:

إنه مفتاح خزانة بالفندق!

لمنْ هي؟ أريد المعرفة لأمرٍ مهمٍّ!

نظَرَ الموظَّف إليه بترددٍ..

إنه أمرٌ خطيرٌ...

شَرَعَ يبحث في جهاز الكمبيوتر الموجود أمامه، قال:

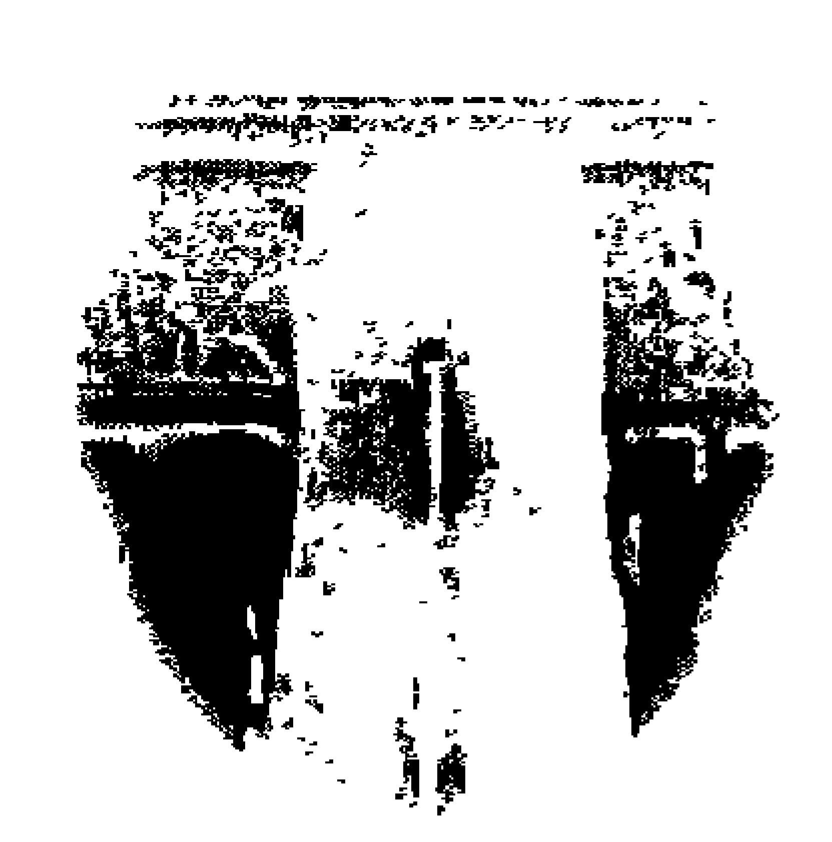
إنها باسم الآنسة «سارة مراد»...

شعر «خالد» بالارتياح... قال:

هل يمكنني الاطلاع على محتوى الخزانة؟

نعم، بكلِّ تأكيد، مادمت تملك المفتاح...

* * *



(28)

جلسَ «خالد» أمام المحقق سعيداً، فقد ظَفَر أخيراً بشيءٍ، يظنّ أنه يثبت براءة «سارة»... بينما المحقق يتأمل أسطوانة الكمبيوتر، ويدَّعي عدم معرفته بأي شيءٍ.. ثم يسأل «خالد»:

ماذا تظنّ بشأنها؟

قلْبي يحدِّثني بأن بها معلومات مهمة!

لقد أرسلناها إلى المعمل الجنائي، حيث قام الخبير بتشغيلها ومعرفة محتواها، فوجدها تحوي اعترافاً كاملاً من القتيل «دوريان ستيفان»، الملقب باسم «حمزة ستيفان»، وهو لا ينتمي إلى الموريسكيين، كما كان يزعم بالطبع... وقد أرشدنا باعترافه إلى أخطر تشكيل عصابي عالمي... كما أنه قدَّم بعض الأدلة التي يمكننا الأخذ بها الآن... فمن الواضح أنه كان إلى جانب أعماله القذرة الأخرى، يحتفظُ ببعض الأوراقِ التي تُدين شركاءه، ومنافسيهم بغية ابتزازهم من جهة، وحمايةً لنفسه في الوقت ذاته..

ثم أطرقَ المحقق فجأةً..

وكانتْ من بين الأشياء الموجودة على المكتب خارطةٌ قديمةٌ لدهليزٍ طويلٍ.. وما كاد «خالد» يلمح الصورة المصاحبة للأسطوانة،أثناء إخراجها من مظروف كانت به، حتى نهضَ فجأةً ، وهو يشير إلى الصورة قائلاً:

أعرف هذا الشخص! لقد رأيته بعينيَّ...

راح المحقق يُدقق النظر في ملامح صاحب الصورة، ثم بادر باستدعاء «سارة» من محبسها... فلمّا جاءت، عَرَضَ الصورةَ عليها وهو يسألُها:

أرأيتِ صاحب هذه الصورة من قبل؟!

أخَذَت منه الصورة.. نظرت فيها بعينيْن مجهدتيْن، صاحَتْ:

نعم أعرفه! إنه الشَّحاذ...

قال «خالد» بلهجةٍ واثقةٍ:

بل تقصدين القاتلَ!

ثم التفت إلى المحقق قائلاً:

يستطيعُ الظهور بأكثر من شخصيةٍ! إنه يتعقَّب المتهمة منذ أتت إلى غرناطة... أرسَل المحقق تنهيدةً، وهو يفرك عينيه من أثرِ التعبِ والإجهادِ... قال:

لقد أرسلْتُ في استدعائهِ...

خلال بضع دقائق، فُتِحَ باب الغرفة، ودخل الرجل السمين في كاملِ أبهتهِ وأناقتهِ... نظرتْ إليه «سارة» بذهول:

أَيُعقلُ أن يكون هذا هو الشحاذ؟!

نَظَر الرجلُ إليها بابتسامةٍ خبيثةٍ، ثم جلسَ أمام المحقق بهدوءٍ... أخرج من معطفهِ لفافةً متوسطة الحجم، أعطاها للمحقق ومكث ساكناً...

قال المحقق وهو يتأمل محتوى اللفافة:

أقدِّم لكما السيد «إدوارد لوركاس»، إنه أحد أهمّ وأنشط المخبرين الذين يعملون معنا..

نظرتْ «سارة» إلى «خالدٍ» بدهشةٍ... بينما بدتْ في عينيّ «خالد» استفسارات كثيرة... أعطى المحقق بعض الصور إلى «خالد» لمشاهدتها قائلاً له:

لحسن الحظ أن السيد «لوركاس» مكلَّف بالتحري عن مجموعة تكوِّن تشكيلاً عصابيًّا دوليًّا، ولقد استطاع أن يصوِّر الجريمة حال وقوعها... لكننا أردنا أن نجعل الجاني الحقيقي يطمئن تماماً، وبذلك يرشدنا إلى بقية التشكيل العصابي، ونفهم الهدف النهائي من العملية ككل... فالأمرُ أكبرُ من مجرد جريمة قتل..

قال «خالدٌ»:

هلْ تقصدُ؟!

فقاطعه المحقق قائلاً:

لقد علمنا من خلال التحريات،وهو ما أكَّدته الأسطوانة التي تركها بخزانة الفندق؛ أن المجنيَّ عليه كان يعملُ لحساب أحد مراكز الأبحاث، التي تُـمولها إحدى شركات الأدوية العملاقة..

وأضَاف «لوركاس»:

في حقيقةِ الأمرِ كان مستر «ستيفان» يعملُ في شركةٍ، ويغازلُ الشركةَ المنافسةَ لها بإمدادها بما تحتاج إليه من معلومات... أي كان يُشبه العميلَ المزدوجَ في عالم الجاسوسية، وهذا ما أدى إلى مصرعه في النهاية.

سألَ «خالد» وهو في غاية التركيز:

هلْ لى في مزيدٍ من الإيضاح؟!

قال «لوركاس»:

كان «ستيفان» المسئولَ عن الأعمال القذرة في الشركة، ولذا أُوكلَتْ إليه مهمة تعقُّب الدكتورة «سارة»، والحصول على تركيبة الدواء، ولذا سافر إلى مصرَ قبل المؤتمر الصحفي، الذى أعلنتْ فيه الدكتورة كَشْفها، وعاد معها على الطائرة نفسها إلى إسبانيا.

أطرقَ «خالد» فجأةً، وراح يتأملُ الصورَ بدهشةٍ بالغةٍ، بينما «سارة» ذاهلةٌ مما يحدثُ حولَها.. ثم قال:

هذه الصورُ دليلُ براءةِ «سارة»! لكن لماذا قتلوا المجني عليه؟

لأنه كان يعملُ مع الشركتين المتنافستين في الوقت ذاته، أو هكذا وصل الأمر إلى شركته الرئيسية، والمعروف أن هذه الشركات لها أياديَ طُولى في كل أنحاء العالم، وهي تُدافع عن مصالحها بطرقٍ عنيفةٍ تُشْبه طرق المافيا..

هكذا قال المحقق ، ثم أضافَ:

الثابت لدينا أنه أراد أنْ يصلَ إلى طرق العلاجِ المذكورةِ في وثيقة «الزهراوي»؛ ليتمكنَ من بَيْعها لحسابِ الشخصى... لكنه لم ينجحْ فى ذلك..

وفجأةً وقعتْ عينا «سارة» على الخارطة الموجودة على مكتب المحقق...
واستطاع المحققُ أن يقرأ ذلك في عينيها، فأعطاها الخارطة قائلاً:
وجدنا هذه الخارطة بملابس القتيل، هل يمكنكِ تفسيرَ ذلك؟!
أخَذتْ منه الخارطة بلهفةٍ، وهي تقولُ:
نعم.. بكلِّ تأكيدٍ... لقد سُرِقتْ من غرفتي بالفندق...
ولكنها تسبَّبت في جريمة قتل أخرى.
قالَ المحققُ ذلك، وهو يحاولُ أن يمنعَ نفسه من الابتسام..
كيف؟

عندما أخذ «ستيفان» الخارطةَ من غرفتك رآها سائقه، ويبدو أنه بحكم عمله الطويل معه أحسَّ بأهميتها، فتحايلَ لتقليدها هو الآخر على أمل بيعها، وكانت مع الأسف سبباً في نهايته.

إنه الطمعُ، وليست الخارطة بالتأكيد هي السبب...
أفهمُ من ذلك أن تلك الخارطةَ هي ما أَعلنْتِ عن العثور عليها في المؤتمر الصحفى؟ وهل هي الخارطة الأصلية..؟!

حكَتْ «سارة» للمحقق عن ذلك اليوم البعيد... حين وجدتِ المخطوطةَ، أثناءَ ترميمها لعمود في غرفةٍ من غرف مسجد «السلطان حسن»، التي تُحيط بالصحن، ومخصَّصةٍ لتدريس أحد المذاهب الأربعة، حيث كانتْ كلُّ غرفةٍ من هذه الغرف الأربع بمثابة مسجدٍ صغيرٍ في تصميمه، وكانت الخارطةُ جزءاً من رسالة كتبها إمامٌ غرناطي إلى أحدِ أقاربه بمصر؛ يُخبره فيها بإخفائهِ وثيقـة «الزهـراوي» عن أيدي الطغــاة، أصحـاب محـاكم التفتيش؛ حتى

لا يحْرقوها ضمن ما أحرقوه من وثائقَ وكتبٍ عظيمةٍ، وقد رسَم له خارطةً بمكان إخفاء الوثيقة حتى يمكنه استخراجها يوماً ما ليفيدَ منها الناس...

قالتْ «سارة» بصوتٍ واثقٍ:

كان ذلك أهم نتائج بحثي...

ولكن هلْ هذه هي الخارطة الأصلية؟

بالطبع لا... فالرسالة الأصلية في مصر، فكنوزنا لا تبرح أرض الوطن... ولكنِّي قُمْتُ بتقليد نسخةٍ طبق الأصل من الخريطة فقط بمقياسها نفسه؛ حتى يمكنني الوصول إلى الوثيقةِ الحمراءِ.

هذا يعني أن بإمكانكِ أن تُرشدينا إلى مكان إخفاءِ الوثيقةِ؟

نعم... أظنّ ذلك...

عندئذٍ، نهض المحققُ فجأةً قائلاً:

حسناً، سنرفع الأمر للسلطات لتوفير الإمكانات الممكنة كافة التي تحتاجين إليها...

* * *



(29)

داخلَ قَصْر الحمْراءِ، كانتْ «سارة» تقفُ في فناء الرياحين، أمام البُحيرةِ المستطيلةِ، ذات الاخضرار النظيفِ العميقِ، وقد أخَلتْ قوات الشرطة القصرَ تماماً فى ذلك اليوم، ومنعت الزيارة فيه بحجة وجود بعض الإصلاحات داخله، وكان يرافق «سارة» لجنةٌ رفيعةُ المستوى من علماء الآثار الإسبان؛ خوفاً من قيامها بأيِّ عمل يُهدِّد المبنى الأثري، الذي ينتظر إعلانهُ ضمن عجائب الدنيا الجديدة، ولكنْ كان يبدو من تصرفات اللجنة اطمئنانهم التام لما تقومُ به «سارة»، بعد تلمسِهم لمدى حبها للأثر، وحفاظها عليه.

قالتْ «سارة» لأحدِ العمال:

يمُكنكَ النزولُ برفقٍ في مياه البحيرة، والبحث في القاع عن حلقة معدنية.

استغرق العاملُ وقتاً غير قليل، ونزل زميلهُ يساعده، بعدما أحسَّ بحاجته للمساعدة.. وبعد أن تملك «سارة» الشك في صحة المكان الذي تبحث فيه،

خاصة أنها كانت تظنُّ– في أول الأمر– أن الدهليز يقع أسفَل ساحة السِّباع، ثم أعادتْ تفكيرها، ووصلتْ في بحثها إلى فناء الرياحين.. وفجأةً قطع تأملاتها صوتُ العامل، وهو يُعلن: وجدْتُها... وجدْتُها..

هنالك فقط أحسَّت باطمئنانٍ سَرَى في نفسها، وكأنَّ هذه العبارة سحريةٌ..

وقالتْ للعامل:

حاوِلْ زحْزحَتها، أو رَفْعها...

أحتاج إلى مايرفعها، فيبدو أنها في مكانها هذا من زمن بعيد.

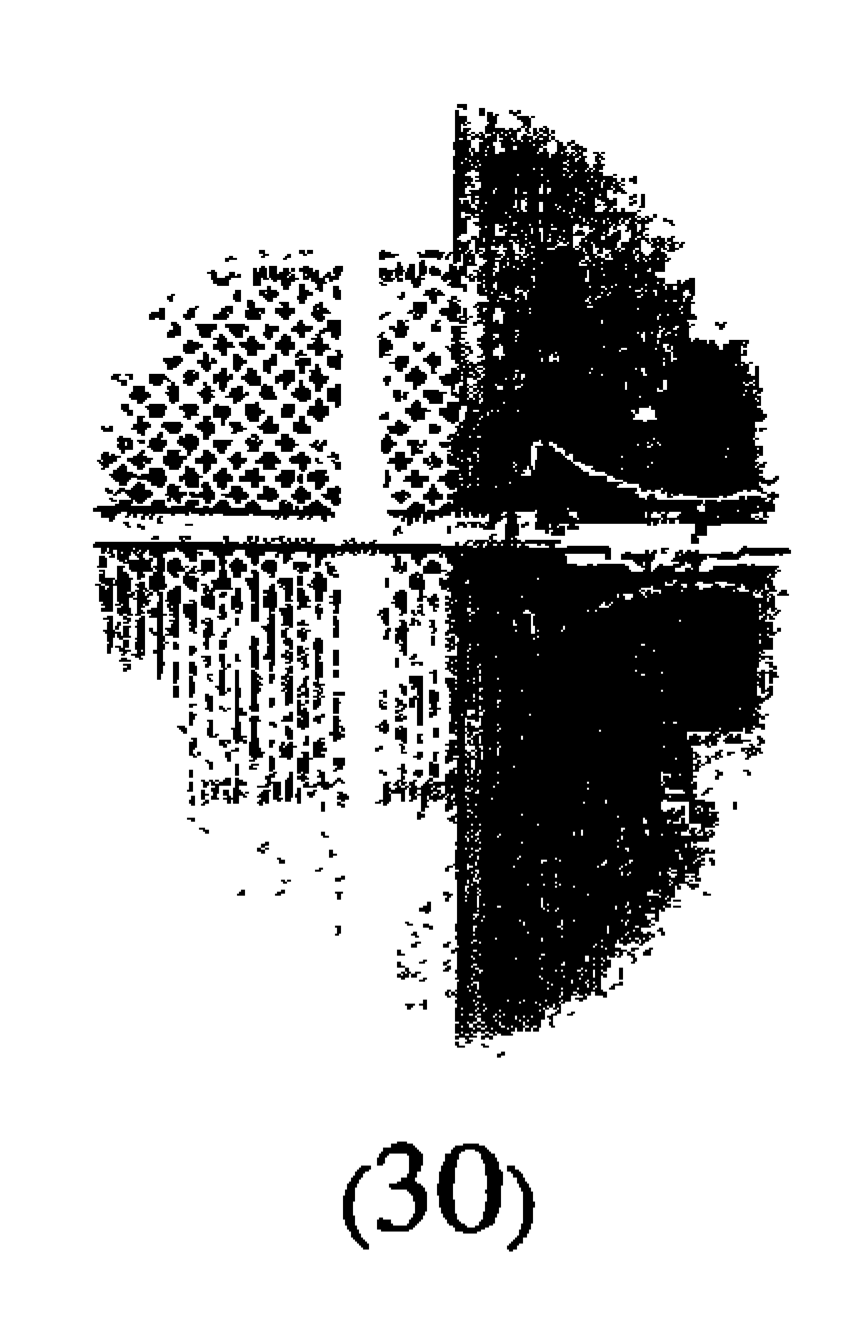
الأفضل أن نقوم بشفْطِ الماء من البحيرة قبل إتمام مهمتنا – ونظرتْ «سارة» وهي تلفظُ بهذه الجملة إلى أعضاء اللجنة .

يُمكننا أن نؤجل العمل للغد؛ حتى يتم للدكتورة «سارة» ما أرادت.

قال رئيس اللجنة ذلك، وهو يتحركُ من مكانه مغادراً المكان، وخلفه كل أعضاء لجنته.

وتحركت «سارة» هي الأخرى لتغادرَ المكانَ؛ لتستعدَّ لكشْفِ الغد الجميل.

* * *



(30)

كانتْ «سارة» تتلألأ في ثوب عُرسٍ أبيض جميل موشًّى بخيوطٍ ذهبيةٍ، يجعلُها تبدو كأميرةٍ عربيةٍ من أميرات زمن الأندلسِ الجميلِ... وعلى جبينها يلمعُ تاج من الذهب الخالص على شكل ثلاث زهرات من اللوتس. كانت تبدو في غايةِ السعادة، بعدما أفرجَتْ عنها الشرطة الإسبانية، وسمحتْ لها بإقامة حفل عُرْسها في قصرِ الحمراءِ.

دخل «خالد» إلى القصر من باب الشريعة، حيث تجمَّع الناس خارج قاعة السفراء، وقد فُوجيء بهذا الجمْعِ الغفيرِ من الناس الذين جاءوا لمشاركتهم سعادتهم، ولكنه بمجرد أن لمح« سارة» من بعيدٍ جالسةً، أسرع الخطى إليها، وكأنَّ الدنيا خلتْ من سواها...

كانتْ «سارةُ» تتقبلُ التهاني من أحد أعضاء لجنة الآثار، الذين شاركتهم العملَ طوال الأيام الماضية، حتى أصبحوا جميعاً أصدقاء حميمين، حين جاء

«خالد» وجلس بهدوءٍ بجوارها في الكرسي المخصَّص له، فبادرته «سارة» بالقول:

كنت سأنتظر دقيقةً واحدةً أخرى، فإنْ لمْ تصلْ كنتُ سأعرضُ مكانك على أيٍّ من الحاضرين...

وهل تحرميني من السعادة التي ظللْت أنتظرها طوالَ حياتي؟

لمْ تتمكَّن «سارة» من الإجابة... إذْ رأت أمامها فجأة «لوركاس» بجسده السمين، وصلعته الشهيرة... فتغيَّر وجهها، وتذكرتِ الأيام العصيبة التي قضتْها في الحجز، وقد لاحظ «لوركاس» ذلك، فقال ضاحكاً:

حاولْتُ مَنْعَ نفسي من الحضور؛حتى لا أرى هذا التجهم على وجهك، ولكني لم أستطع... كنتُ راغباً في رؤيتك بثوب العرس أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر..

تعجبتْ «سارة» من ذلك الحديث، ومن أنه يصدرُ من «لوركاس» بالذات، ويبدو أنه ارتسمتْ على وجهها علامةُ تعجبٍ كبيرةٍ ،لفتت انتباه الحاضرين.. حتى رأت الجميع يبتسمون في آنٍ.. وأكمل «لوركاس»:

كنتُ أثناء مراقبتي لك أحسُّ بمدى وداعتك... وأخافُ عليك أن يُصيبك أي أذى من «ستيفان» ورجاله، وحاولت تحذيرك أكثر من مرة... هل تتذكَّرين يوم الحديقة والبيتزا...؟ أنت طيبة القلب جدًّا آنسة «سارة»، ورقيقة.. لقد عطفْتِ على شحَّاذٍ فقيرٍ، وأعطيته جزءاً كبيراً من طعامك رغم خوفك الشديد منه..

ولكنك لم ترها وهي تقفُ وسط العمال، وتنزلُ إلى الدهليز بنفسها، وتتحسَّسُ كل جزءٍ فيه حتى عثرت على الحجرة السِّحرية الضيقة... لو رأيتها حينذاك لما تلفظت بأي كلام عن رقتها... قال «خالد» ذلك، وهو ينظر إلى «سارة» لإغاظتها...

شاركتْ والدة «سارة» في الحديث للمرة الأولى بأن سألتْ:

وهل وجدتِ الوثيقةَ الحمراءَ في هذه الحجرة؟

كان عندى يقينٌ أن الوثيقةَ في هذه الغرفة تحديداً، حيث تنتهي الخريطة إلى تلك الحجرة، ولكن المشكلة أنها كانت مُغْلقةً بقفلٍ مُحْكمٍ، وأنا لا أملك المفتاح.

وماذا فعلتِ؟

سألتِ الأم بشغفٍ..

تذكرتُ فجأةً أنني رأيتُ مفاتيحَ كثيرةً في متجر جد «خالد»، وكان من بينها مفتاحٌ كبيرٌ مميزٌ لايمكن نسيانه، ورأيت أن حجمه وشكله يتفقان مع شكل القفل... ولما عَلِمَ الجد بذلك أعطاني كل المفاتيح لتجربتها، ومنها المفتاحُ الكبيرُ، وكان سعيداً بأن صدق حدسه تجاه تلك المفاتيح، واحتفاظه بها كل هذه السنون، وهكذا وجدنا الوثيقة الحمراء...

اعترفي إذاً أنه لولا جدي لما عثرتِ على شيءٍ...

قالَ «خالدٌ» ذلك بفخرٍ...

بكلٍّ تأكيدٍ فهو رجلٌ عظيمٌ... وقد تزوجتك فقط لأنك حفيده..

هكذا... إذًا؟ وأنا أتساءلُ عن سبب قبولك الزواج منِّي بعد تردُّدٍ..

الآن عرفتُ السببَ الحقيقي..

تدخل «لوركاس» لإنهاء تلك المجادلة بين العروسين، قائلاً:

ولكن هل بُني هذا الدهليز خصيصاً لإخفاء الوثيقة؟

بالطبع لا.. فقد بناه الملوك المتعاقبون من بني الأحمر ليتسنَّى لهم الفرار إذا ما حدثت فتَن تهدد حياتهم... وقد عرفه بعضُ العلماء والأئمة، ولما جاءت محاكم التفتيش بقسوتها، فكَّر الإمام الغرناطي في استخدام هذا الدهليز القديم في إخفاء الوثيقة، وأرسل الخريطة إلى صديقه في مصر.

وهل سيتم إنتاج الدواء الذي تحويه الوثيقة؟

لقد تقدَّمتْ أكثر من شركة أدوية بعروض لإنتاجه، والسلطات الإسبانية تدرس هذه العروض، خوفاً من أن يكون أحدها بغرض إخفائه.

وهل ستنالين جزءاً من هذه الأرباح، بما أنكِ أنت التي وجدت ذلك الكنز؟

لمْ أهتمَّ بتلك التفاصيل المادية، ولكنى اشترطت أن تتم الإشارة بصورة واضحة إلى أن اكتشاف هذا الدواء يعود إلى العالم الكبير «الزهراوي»... ووعدوني بأنهم سيطلبون ذلك من الشركة المنتجة، كما وعدوني بأن يُشتق اسم الدواء من اسمه، فذلك أقل ما نفعله لهذا العالم الجليل.

والآن جاءَ دوري في السؤال سيد «لوركاس»...

على الرَّحْبِ والسَّعةِ دكتورة «سارة»...

لماذا قام ستيفان بوضع الأسطوانة فى خزانة باسمي؟...

لأنه كان يثقُ بكِ.. ويعرف أنك لن تستغلي تلك الأشياء ضده، إلى جانب أنه كان يريد كسب ثقتك لتعطيه سرَّ الوثيقة..

وهنا تململَ «خالدُ» في مقعده، وقالَ:

كفىَ.. أنتم تُحولون أجمل ليلة في عمري إلى جلسةِ عملٍ..

ومدَّ يده إلى «سارة» يطلبها للرقص؛ وخاصة أن الفرقة الموسيقية كانتْ قد بدأت عزفَ سيمفونية «شهرزاد» لـ «ريمسكي كورساكوف»، فقال «خالدٌ»:

لقد أحضروا لك سحْرَ الشرق كاملاً هذه الليلة..

بل ينقصُه «ابن زيدون»..

أغارُ عليكِ من عيني ومنِّي..

ومنكِ ومن زمانك والمكان..

ولو أنِّي خبَّأتك في عُيوني...

إلى يومِ القيامةِ ما كفاني...

الله... هذا شعر «ابن زيدون» في «ولاَّدة» (*).

(*) «ولادة »بنت الخليفة «المستكفي» ، التي هام بها الشاعر الأندلسي «ابن زيدون» عشقاً ، ونظم فيها أشعاره .

لأنه لمْ يكنْ قد رآك بعدُ...

هل تجرؤُ على مقارنتي بـ «ولاَّدة» ؟

«ولاَّدةُ».. و«بثينة».. و«عبلة».. و«عزةُ».. وغيرهن..

الأفضلُ أنْ ننصرف الآن فقد بدأت تَهْذي..

أنت لم تعرفي بعدُ بقيةَ الهذيانِ..

وما هو؟

لقد تأخرنا كثيراً، وجدِّي وجدَّتي ذهبا إلى فراشِهما بالتأكيد، وهما لنْ يَسْتيقظا مَهْما حاولْنا الطَّرْق.. فسمعهما ثقيلٌ للغاية..

وأينَ سنبيتُ الليلةَ حتى سفرنا في الصباح؟

ما رأيكُ في الفندق المتواضع الذي قضيْت فيه ليلتك الأولى في غرناطة..

ماذا تقصدُ؟ الفندقُ المشبوهُ الذي قُبضَ عليَّ فيه؟

سأكونُ معك؟

هل تتحدَّث جدياً؟

وأخذا يَضْحكان معاً حتى غادرا قصر الحمراءِ إلى دُنْياهم الجديدةِ.

دماء في قصر الحمراء

« الوثيقة » ... «غرناطة» ... «الزهراوي» .... «سارة»
... هذه ليست في قصتنا مجرد مفردات أو كلمات
متراصة بجوار بعضها البعض في نسق خيالي بحت
لايمت إلى الواقع بصلة ، وإنما هي بالمعنى الأدق
«الكلمات الشخوص» أو «الكلمات الأبطال » لهذه
الرواية التي تجمع في طياتها بين أضداد شتى ..
تجمع الرواية بين السمت التاريخي والسياق
الاجتماعي والنسق الدرامي .. تجمع كل مفارقات
الزمن .. القديم منه والحديث .. تمازج بين الأصيل
والمعاصر .. حتى لنكاد أن نعتبرها و[illegible]
روائية، أُجيدَ حبكُ أحداثها ، وبلغت د[illegible]
للأحداث ذروتها منذ السطر الأول م[illegible]
كلماتها ..





مكتبة الدار العربية للكتاب